الترهيب والترغيب
صورتان من صور الحرب النفسية
وأثرهما في سقوط المدن الإسلامية
بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)
وغرناطة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م)
(دراسة مقارنة)

د . حسام محمود المحلاوي

مدرس التاريخ الإسلامي

كلية الآداب- جامعة دمياط

الترهيب و الترغيب صورتان من صور الحرب النفسية، وأثرهما في سقوط المدن الإسلامية بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وغرناطة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) (دراسة مقارنة)

حسام محمود المحلاوى

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب- جامعة دمياط – مصر.

البريد الإلكتروني: hossamelmahallawy@du.edu.eg

ملخص البحث: يميط هذا البحث اللثام برصد أوجه الشبه الكبيرة بين طريقة إسقاط المدينتين بغداد، وغرناطة ، وما لعبته الحرب النفسية بشكل واضح وملموس ، من الترهيب تارة عن طريق الرسائل، أو باستخدام القوة المفرطة فى التعامل بقصد التخويف ، واتباع سياسة الترغيب تارة أخرى، إما عن طريق الرسائل أيضاً، أو باتباع سياسة الاستقطاب لشخصيات مؤثرة فى سياسة الدولة، وعادة ما تتمثل فى حاكم الدولة نفسه، أو شخصيات من البيت الحاكم، أو من الوزراء وكبار رجال الدولة، أو حتى من العلماء المؤثرين فى المجتمع. وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة عناصر رئيسة: أولاً: القوة المهاجمة (المغول، قشتالة الموحدة): ثانياً : الترهيب (باستخدام الرسائل– استخدام القوة المفرطة): ثالثاً: الترغيب (باستخدام الرسائل – باستقطاب الشخصيات).

الكلمات المفتاحية: الحرب النفسية – سقوط بغداد – سقوط غرناطة – المغول – قشتالة.

حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود (العدد الثالث والثلاثون)

Intimidation and incitement are two forms of psychological warfare, and their impact on the fall of the Islamic cities of Baghdad (656 AH / 1258 CE) and Granada (897 AH / 1492 CE) (a comparative study)

Hossam Mahmoud El Mahlawy
Teacher of Islamic History, Faculty of Arts, Damietta University, Egypt.
Email: hossamelmahallawy@du.edu.eg

Abstract: This research reveals the: disclosure of the great similarities between the way the two cities were overthrown, Baghdad and Granada, and what the psychological war played, clearly and tangibly, from intimidation sometimes by means of messages, or by using excessive force in dealing with the intent to intimidate, and following the carrot-policy at other times, either through letters Also, or by pursuing a policy of polarization of influential figures in state policy, usually represented by the ruler of the state himself, or figures from the ruling house, or from ministers and senior statesmen, or even from influential scholars in society.

The nature of the research necessitated dividing it into three main components: First: the attacking force (the Mongols, united Castile) - Second: intimidation (using messages - using excessive force) : Third: the carrot (using messages - attracting characters).

Key words: psychological warfare - fall of Baghdad - fall of Granada - the Mongols - Castile.

مُقَدِّمَة

الحرب النفسية نوع من الحروب التي لا يتم فيها استخدام السلاح الذى يستخدم في المعارك الحربية، أو حتى وسائل الحروب الاقتصادية، وفى الغالب تكون الحرب النفسية مقدمة لمعركة أو نتيجة لها للتمهيد لمعركة أخرى، أو للاستيلاء على بلد من البلدان، أو إسقاط دولة من الدول، أو النيل منها سياسياً واقتصادياً.

ومصطلح الحرب النفسية وإن كان مصطلحاً حديثاً ،إلا أن آلياتها ووسائلها قد استخدمت عبر عصور التاريخ المختلفة، ومارستها قوى عديدة للنيل من أعدائها، بعد أن نجحت في القضاء على تماسك عدوهم، وخلخلت مجتمعه بطريقة أو بأخرى، فخارت قواه العسكرية، بعد أن استشرت روح الاستسلام وعدم القدرة على المقاومة بين قياداته وشعبه.

وتُعرف الحرب النفسية اصطلاحاً بأنها نوع من القتال النفسى، يتم توجيهه للعدو، الهدف منه تدمير الروح المعنوية بكافة الوسائل، وفقدان الثقة بالنفس أو بأي من القيادات الموجودة، فتعمل على سريان روح الاستسلام للعدو، وعدم مقاومته [١].

وللحرب النفسية عدة وسائل تستخدمها القوة المهاجمة في السيطرة على أعدائها، من أهمها الترهيب، والترغيب، وبث الشائعات، والدعاية[٢].

وقد آثرت اختيار وسيلتين مهمتين من وسائل الحرب النفسية، وهما الترهيب والترغيب، ليكونا محور هذا البحث، لما كان لهما من آثار

---

(١) حميدة مهدى سميسم : الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، بغداد، ٢٠٠٤م، ص ١٠.

(٢) محمد سيد محمد : الحرب النفسية وكيف نواجهها، مجلة الدراسات الإعلامية، مصر، ع ٣٢، ٣٣، مارس ١٩٨٤م، ص ٣٤؛ فهمى النجار: الحرب النفسية (أضواء إسلامية)، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ٢٠٠٥م، ص ٦٨-٦٩.

واضحة جلية في سقوط دولتين من أهم الدول الإسلامية بسقوط حاضرتيهما، في نكبتين من أجل نكبات دولة الإسلام على مدار تاريخها الطويل .

أما النكبة الأولى فكانت عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حينما قرر المغول استكمال اجتياح مساحات واسعة من بلدان العالم الإسلامي ،بغزو العراق، فاتخذوا من الحرب النفسية ضد المسلمين خطة حربية محكمة، سهلت لهم مهمتهم بعد ذلك، فأمعنوا أسلحتهم قتلاً في جموع المسلمين حتى تمكنوا من دخول بغداد حاضرة الدولة العباسية.

وفى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م يسطر التاريخ نكبة أخرى حلت بالعالم الإسلامي، لعبت فيها الحرب النفسية بالغ الأثر، بسقوط مدينة غرناطة، حاضرة مملكة بنى الأحمر، آخر معاقل المسلمين في بلاد الأندلس، على يد مملكة قشتالة الموحدة (قشتالة وأراجون بعد الوحدة)، وكانت الحرب النفسية إحدى أهم الوسائل التي اتبعتها القوى المسيحية في تحقيق أهدافها بالاستيلاء عليها .

ويميط هذا البحث اللثام برصد أوجه الشبه الكبيرة بين طريقة إسقاط المدينتين بغداد، وغرناطة، وما لعبته الحرب النفسية بشكل واضح وملموس، من الترهيب تارة عن طريق الرسائل، أو باستخدام القوة المفرطة في التعامل بقصد التخويف، واتباع سياسة الترغيب تارة أخرى، إما عن طريق الرسائل أيضاً، أو باتباع سياسة الاستقطاب لشخصيات مؤثرة في سياسة الدولة، وعادة ما تتمثل في حاكم الدولة نفسه، أو شخصيات من البيت الحاكم، أو من الوزراء وكبار رجال الدولة، أو حتى من العلماء المؤثرين في المجتمع .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة عناصر رئيسة :

أولاً : القوة المهاجمة (المغول، قشتالة الموحدة)

ثانياً : الترهيب (باستخدام الرسائل– استخدام القوة المفرطة)

ثالثاً : الترغيب (باستخدام الرسائل – باستقطاب الشخصيات)

وأختتم هذا البحث بخاتمة تضم أهم ما توصلت إليه من نتائج من خلال دراساتي لهذا الموضوع، وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها .

أولاً: القوة المهاجمة (المغول، قشتالة الموحدة):

قبل الدخول في غمار الحرب النفسية وصورها، والترهيب والترغيب الذى اتبع في سقوط بغداد وغرناطة وأشكاله، وجب التعريف بالقوتين محل الحديث، واللتان قامتا بالترهيب والترغيب للجانب الإسلامي، وهما قوتا المغول، ومملكة قشتالة .

أ- المغول:

المغول مجموعة من القبائل البدوية، ذكر المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون أنها أحد فروع الأمة التركية التي تفرعت منها معظم بطونهم [١]، وكانت هذه القبائل تعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبى، والتى تمتد من جنوب سيبيريا إلى شمال التبت وغربى منشوريا وشرقى تركستان [٢]، وسمى المغول بهذا الاسم نسبة إلى نشأتهم الأولى في هضبة منغوليا، ولم تكن كلمة مغول معروفة خارج البلاد التي كانت تسكنها القبائل المغولية على حدود صحراء جوبى قبل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، وظهروا في منتصف القرن السادس الهجرى/

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر – تحقيق خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٣، ص ٦٥٩.

(٢) تُرْكِسْتَان : تتكون من مقطعين ترك ويقصد بها الشعب التركى، وستان وتعنى الأرض، والمقصود أرض الترك، وهى اسم جامع لكل البلاد التى كان يسكن فيها الأتراك، جمعت كل عادات وتقاليد الترك، وكانت بلاد الترك حسبما يذكر ياقوت الحموى ست عشرة مدينة عنها انظر : ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٢، ص ٢٣-٢٦؛ فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ-مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ،١٩٨٠م، ص ٢٧-٢٨، ٤٠-٤٢.

الثاني عشر للميلاد كقوة لها شأن حربى كبير [١] متخذين من مدينة قراقورم [٢] مقراً وعاصمة لدولتهم تحت زعامة قائدهم المقدس تيموجين[٣]

(١) عن المغول وسياستهم الحربية انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٢٦-٣٦؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان ،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١م؛ ص ٥٤٤-٥٤٦؛ السيد الباز العرينى : المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٥٠-٥٢؛ ريهام عبد الله المستادى : رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، دورية كان التاريخية ،دار ناشرى للنشر، الكويت، السنة الثانية ع ٤،٢٠٠٨م، ص ٦٨-٦٩.

(٢) قراقورم : مدينة صينية تقع على نهر أورخون فى أقاصى بلاد الترك، كان يسكنها فرع من الترك يسمى الكرايت، وكانت عاصمة لدولتهم، ودارت بينهم وبين جنكيز خان حرب ضروس، تمكن من تحقيق النصر عليهم، وكانت النتيجة أن ضمها لدولته، واتخذها عاصمة للمغول . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا – بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، جـ٤، ص ٤٧٨؛ فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٢٨.

(٣) تيموجين (جنكيز خان) : إبن لأحد قادة المغول المشهورين، وأحد زعاماتهم يسمى يوسكاى بهادر، وكان مولد جنكيز خان فى عام ١٥٥٥م، وبدأ نجم تيموجين يسطع بين قبيلته، وتولى الزعامة ، وبدأ يعمل على توحيد قبائل المغول تحت زعامته، وهو ما نجح فيه بالفعل، ولذلك لقبوه جنكيز خان (قاهر العالم). انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٣٨-٤٨؛ السيد الباز العرينى : المغول، ص ٣٤؛ ريهام عبد الله المستادى : رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، ص ٦٨-٦٩.

الذى لقبه المغول في عام ٦٠٠هـ /١٢٠٠م بجنكيز خان(قاهر العالم) بعد أن تمكن من إخضاع جميع القبائل المغولية لسلطانه(١).

وقد أثرت البيئة التي تربى فيها المغول في طبيعتهم الحربية، فعلاوة على شظف العيش الذين تربوا عليه، كانت طبيعتهم الحربية الهمجية تبث وحدها الرعب في النفوس، وعلاوة على ذلك فقد كان لهم عدد من الأساليب في بث الرعب في نفوس أعدائهم، فقتلوهم رعباً قبل أن يروهم (٢).

ب- قشتالة الموحدة :

القوة الثانية التي سيتناولها البحث كقوة مستخدمة للترهيب والترغيب، فهى القوة التي كانت قد أخذت على عاتقها الحرب ضد المسلمين في بلاد الأندلس، وبعد أن كانت مملكتان متحاربتان وهما،

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م، ص ٦٥؛ فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٤٨-٤٩؛ منصور عبد الحكيم : جنكيز خان إمبراطور الشر وقاهر العالم، دار الكتاب العربى، دمشق، ٢٠٠٨م، ص ص ٥٠-٦٠؛ قاسم محمد مزعل غنيمات : قبائل المغول الأولى : النشأة والاندماج والتوحيد ٦١٦-١٢١٨م، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الأردن، مج ٥، ع٣، ٢٠١٢م، ص ٩٢-٩٣.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٣٢-٣٥؛ مفيد الزيدى : المؤرخ ابن الأثير الجوزى وتدوينه الغزو التترى للمشرق الإسلامى، مجلة التعريب، سوريا، العدد١٨، ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٢٢٧-٢٢٩؛ ريهام عبد الله المستادى : رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، ص ٦٩؛ ؛ قاسم محمد مزعل غنيمات : قبائل المغول الأولى، ص ٩٣؛
Bayle St John : The Mongols , Journal of the Ethnological Society of London (1848-1958) , ,Royal Anthropological Institute of Great Britain and Irlend , Vol.1, 1848, p.86-90.

مملكتى قشتالة Castilla[١]، وأراجون Aragon[٢]، أصبحت قوة واحدة، توجه حربها فقط للمسلمين، بقصد طردهم نهائياً من بلاد الأندلس، فقد

(١) مملكة قشتالة Castilla : عرف شبه الجزيرة الأيبيرية عدداً من الممالك المسيحية، كانت أهمها مملكة قشتالة، وكان يقصد بها البلاد التى تقع خلف جبال ألبرت، وكانت جميع الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة حتى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، تحت زعامة سياسية واحدة هى زعامة مملكة نافار Navara فى الشمال، بقيادة الملك سانشو الأول Sancho I، الذى أطلق العرب عليه اسم شانجه الكبير، وبعد وفاته فى عام ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥م، انقسمت الممالك بين أبنائه، فكانت قشتالة Castilla من نصيب ابنه فرناندو الأول Fernando I، ولم تجد قشتالة مجالاً للتوسع سوى الأراضى الإسلامية، وغدت أقوى الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة بعد نجاحها فى الاستيلاء على طليطلة Toledo فى عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م، واتخذت منها عاصمة . انظر : الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٤٨٣؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين – ترجمة محمد عبد الله عنان ،القاهرة، ١٩٤٠م، ص ص ١٠-١١؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، مجلة البحث العلمى، المغرب، ع ٣٤، ١٩٨٤م، ص ٥٩-٦٠؛
Z.N. Brooke: A History of Europe from 911- 1198- London, 1937, p. 217-220 .

(٢) مملكة أراجون Aragon : إحدى الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، كانت تتكون من الأراضى المستردة من المسلمين جنوب جبال ألبرتات، وفى عهد الملك ألفونسو الأول Alfonso I المعروف بالمحارب (٤٩٨-٥٢٨هـ/ ١١٠٤-١١٣٤م)، تم ضم سرقسطة Zaragoza إلى مملكة أراجون، ثم كان الاتحاد بين أراجون وإمارة قطلونية أو كتالونية Catalonia وذلك فى عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وبدأ نجم أراجون يلمع كقشتالة : انظر : يوسف أشباخ : تاريخ المغرب والأندلس، ص ص ١٠-١١؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٦١-٦٢؛ نادية مرسى صالح: العلاقات المسيحية الإسلامية فى أسبانيا عصر الملك ألفونسو الأول المحارب – القاهرة، ٢٠٠٠م ،ص ص ٨٠-٨١؛

كان عام ٨٧٤هـ /١٤٦٩م نقطة تحول كبرى لصالح القوى المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية، وذلك باتحاد المملكتين في قوة مسيحية واحدة بزواج الأميرة إيزابيلا Esabel [١] ولية العرش في مملكة قشتالة، من الأمير فرناندو[٢] ولى عرش مملكة أراجون . وكانت دراستها دينية كاثوليكية، فكانت من أكثر المتعصبين للمذهب الكاثوليكى، وتبنت فكرة استرداد الأراضى الإسلامية، وطرد المسلمين من بلاد الأندلس نهائياً. [٣]

---

(١) الملكة إيزابيلا Esabel : هي أخت غير شقيقة للملك القشتالى هنرى الرابع، حيث كان والده الملك خوان الثاني قد تزوج فى عام ٨٥١هـ / ١٤٤٧م من ابنة عم ملك البرتغال الأميرة إيزابيلا، والتى أنجب منها الأمير ألفونسو Alfonso، والأميرة إيزابيلا، وقد ولدت الأميرة إيزابيلا عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م ،، وتزوجت عام٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م من الأمير فرناندو ولى عهد مملكة أراجون، وبعد وفاة أخيها غير الشقيق هنري الرابع أصبحت ملكة قشتالة ، وتوفيت عام٩١٢هـ/ ١٥٠٦م . انظر: محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٦م ، ص ١٨١-١٨٢؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٠؛

Canning, J.:100 Great Kings, Queens and Rulers of the worled-New York,1988, p. 366-367

(٢) الأمير فرناندو Fernando ابن الملك خوان الثاني Juan II ملك أراجون، ولد في عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥٢م من زوجة الملك الثانية، وهي قشتالية الأصل الأميرة خوانا انريكث Juana Inreiques، تولى الأمير فرناندو حكم صقلية في عام ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م، ثم في العام التالي تزوج من الأميرة إيزابيلا . انظر : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص ١٨١-١٨٥؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص٧٠.

Canning, J.: Op. Cit., p. 35-36 .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٨م ، ج١، ص ٥٢٦-٥٢٧؛ عبد الواحد ذنون طه، تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص٧٠.

Bush, M. L.: Renaissance Reformation and the Outer world – London, 1971, p. 52

وبعد وفاة الملك القشتالى هنرى الرابع في عام ٨٧٨هـ /١٤٧٤م تولت الملكة إيزابيلا وزوجها حكم مملكة قشتالة، ثم انضمت إليها أراجون بعد أن ورث فرناندو الخامس العرش عن والده خوان الثاني بعد وفاته في عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م، وبذلك أصبحتا قوة واحدة مسلطة على رقاب المسلمين في بلاد الأندلس (١).

وكان حرياً أن الاتجاه السياسى في مملكة قشتالة الموحدة (قشتالة وأراجون)، بعد هذا الاتحاد الذي باركه العالم المسيحى في تلك الفترة، توجيه القوة العسكرية للملكتين كقوة موحدة ضد الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس، ليتحقق الحلم الذى لطالما راود أجدادهم، بمباركة بابوية وتمويل عسكري ومالي من ممالك مسيحية عديدة، حتى وإن كانت غير حدودية مع الأراضى الإسلامية، وإنما قوت البابوية في تلك الفترة، فكرة حرب الاسترداد المسيحية، والتوسع على حساب المسلمين حتي تمكنوا من تحقيق حلم أجدادهم الدين لطالما حلموا به ،وذلك بسقوط غرناطة في عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م(٢).

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٥٢٦-٥٢٧؛ محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص١٩٤؛ ؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٦٩- ٧٠؛
Canning, J.: Op. Cit., pp. 35-36.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٥٢٦-٥٢٧؛ عبد القادر احمد اليوسف : العصور الوسطى الأوربية ٤٧٦-١٥٠٠، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ،١٩٦٧، ص٣٤٠.

ثانياً : **الترهيب** :

- الترهيب عن طريق الرسائل:

- رسائل المغول:

كانت سياسة الترهيب عن طريق الرسائل إحدى الوسائل التي انتهجها قادة المغول للنيل من أعدائهم معنوياً، وظهرت في رسائلهم دلالات واضحة على تعمد زعزعة الحالة النفسية لدى أعدائهم، وتدميرها كلية، وهو ما يؤثر بصورة أو بأخرى على رغبتهم وقدرتهم على المقاومة غداة علمهم بمحتوي هذه الرسائل .

ومن أجل الأمثلة علي رغبة حكام المغول في زعزعة نفوس أعدائهم، رسالة أوردها ابن كثير للقائد المغولى تولوى[١] بن الإمبراطور جنكيز خان سنة ٦٣٨هـ /١٢٤٠م كان قد أرسلها لملوك الإسلام يدعوهم فيها للدخول في طاعته ، والتى بدأها " ... من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب قان قان.." [٢].

---

(١) ترك جنكيز خان بعد وفاته عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م أبناء كثيرين بلغ عددهم أربعين من ذكر وأنثى، اشتهر منهم سياسياً أربعة فقط، جوجى وجغتاى وتولوى وأوكتاى، وهم من ورثوا عرشه والدهم بعد ذلك، فقد كان والدهم قد قسم بينهم الإمبراطورية المغولية قبل وفاته .وقد ظل العرش لمدة عامين تحت وصاية الأمير تولوى ثم تم اختيار أخيه أوكتاى = خاناً أعظم عام ٦٢٦هـ /١٢٢٩م، وظل يحكم حتى توفى فى عام ٦٣٩هـ /١٢٤١م، انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ١٣٨-١٣٩، ١٦٤-١٦٦، ص ١٨٨؛ انظر : إبراهيم محمد على مرجونة : المغول والحضارة الإسلامية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١٠م، ص ١٢٠؛

Bayle St John : The Mongols , p.89-90.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، ج١٣، ص ١٥٥-١٥٦.

ويتضح من الرسالة سالفة الذكر أن حاكم المغول يريد توصيل رسالة لكل من تسول له نفسه الوقوف في وجهه أو عصيان أوامره بأن أمر حكمه للأرض أمر مفروغ منه، وأنه مفوض من قبل الرب لحكم الأرض، فهو بذلك ملك الشرق والغرب .

كما أن رسالة منكو خان[١](٦٤٨-٦٥٦هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) حاكم المغول لأخيه قائد القوات المغولية هولاكو "....ومن يعصيك فأغرقه بالذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به .. وثق بأنك قوة الله العظيم ... سوف تفتح ممالك الأعداء .." [٢] .

وفي هذه الرسالة أيضاً يؤكد قادة المغول لأتباعهم وأعدائهم علي السواد أنهم القوة العظمي في العالم وأنهم إنما خلقهم الله لحكم العالم، فهم قوة الله في الأرض، ومن لم يرض بذلك، فهو من الأعداء، وذلته وأبنائه أصبحت واجبة علي قادة المغول، وقد عمل هولاكو قائد المغول في

(١) منكو خان : هو ابن تولوى، وعليه فهو حفيد للقائد جنكيز خان، تولى منكو خان القاآنية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، كان محباً للعلم والعلماء على الرغم من أنه كا بوذياً، احترم كثيراً علماء المسيحية والإسلام واليهود تم فى عهده الاستيلاء على مناطق واسعة من الأراضى الإسلامية، وسقطت الخلافة العباسية فى عهده ، توفى فى عام ٦٦٥هـ ١٢٥٧م . عنه انظر :فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ٢٠٥-٢٠٧؛ السيد الباز العرينى : المغول، ص ١٩٤-١٩٥؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥هـ/٨٢٠م- ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩٠م، ص ص ٤١٨-٤١٩.

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ (تاريخ المغول)، تاريخ أبناء هولاكو من آباقا خان إلى كيخاتو خان، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد دار إحياء الكتب العربية ،القاهرة،١٩٦٠م، ج٢، ص ٢٣٦-٢٣٧.

عملياتهم العسكرية ضد المسلمين بوصية أخيه الحاكم فقد أمعن فيهم القتل والذل والهوان، مما شكل في نفوسهم حرباً فاقت حرب السيف بكثر.

أما عن الرسائل الأكثر تهديداً ووعيداً وترهيباً للمسلمين فكانت رسائل القائد المغولى هولاكو للخليفة العباسى عبد الله المستعصم بالله وذلك في عام ٦٥٥هـ /١٢٥٦م ،وهى الرسالة الأولى من هولاكو للخليفة، والتي جاءت كلها في شكل تهديد صريح ومن عباراتها اللاذعة " ... ولابد أن قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولى منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم، والذل الذى حاق بأُسر الخوارزمية، وملوك الديالمة، والأتابكة، وغيرهم، ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أى طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة لهم، فكيف يغلق في وجهنا ؟رغم ما لنا من قدرة وسلطان ... وحينما أقود الجيوش إلى بغداد، مندفعاً بسورة الغضب، فإن لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض ... فسوف أنزل من الفلك الدوار، وسألقيك من عليائك إلى أسفل، ولن أدع حياً في مملكتك ... وسأجعل مدينتك أو إقليمك وأراضيك طعمة للنار..."[١].

وحملت رسالة هولاكو الثانية للسلطان العباسي أيضاً بين طياتها عبارات لاذعة، جاءت كلها في شكل تهديد للضغط النفسى على الخليفة بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة، ومما جاء فيها "... إن الله الأزلى رفع جنكيز خان، ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل

(١) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٦٧ –٢٦٨.

من سار معنا وأطاعنا، واستقام قلبه ولسانه، نبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك ..."[١].

وفى نهاية الرسالة التهديدية يزيل هولاكو رسالته بعبارة " ... عليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد.."[٢].

ويتضح من الرسالتين السابقتين أنهما قد حملتا في طياتهما الكثير من عبارات التهديد والوعيد وبث الرعب في نفس السلطان العباسى، وأن خلاص السلطان وأهل بيته وأمته في طاعة المغول، فإن قام بذلك استقامت له الأمور، وظل على عرشه يحكم تابعاً للمغول.

أما إن كانت نفسه قد راودته بمقاومة هذه القوة الغاشمة فليعلم أن مصيره وأتباعه أضحى محتوماً، فاعلم أنك ستفقد كل شيء أولاً، كما أن السيف علي رقبتك سيمعن القتل فيها ،وخاصتك وأهل بلدك، كما أنه عليك أن تعلم أن جيشي كالجراد والنمل، أى أنك أو غيرك لا تستطيع أن تحصى له عدداً، فإن أنت رغبت في الحرب معنا، فاعلم أنك لا قبل لك بمواجهتنا، ألا تتعلم ممن سبقوك، هل هزَمَنا أحد، هل تمكن أحد من ردنا.

يا لها من رسائل أشد في كلماتها من الحرب رغم ضراوتها، فقتل الجسد بضربة سيف أهون بكثير من قتل النفس رعباً، وهو ما أقبل عليه المغول في حربهم ضد المسلمين في بغداد عاصمة الخلافة، فقد اغتالوهم نفسياً قبل ضرب أعناقهم بالسيف، تري بعد وصول هذه العبارات إلى حكام المسلمين في بغداد، هل يمكن أن يفكر بصورة أو بأخري في

(١) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٧١.
(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٢٧١-٢٧٢.

المقاومة الحربية، أم أنها ستحدث في نفسه من الرعب ما تجعله يفكر كثيراً قبل القدوم علي هذه الخطوة، حتي وإن فكر في القدوم علي المقاومة، فإنه كان يعلم المصير المحتوم، وربما كان ذلك من باب المعذرة إلى الله ﷻ.

يؤكد ما سبق رسالة هولاكو بعد دخول بغداد للناصر صاحب حلب والتى قال له فيها " .. أين المفر ..ولنا البسيطان الماء والثرى..."(١).

وهي الأخرى تحمل في طياتها فكرة المصير المحتوم، وهي الفكرة التي لعب عليها المغول في حربهم ضد أعدائهم، بأنهم ملوك الأرض، وأنه لا مفر إلا بالرضوخ لهم .

وتؤكد هذه الفكرة أيضاً رسالة هولاكو للسلطان المملوكى قطز وما حملته من التهديد والوعيد بقصد بث الرعب في النفوس ومن عباراتها "... يعلم الملك قُطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية إنا جُند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسَلطَنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر، ..، فاتعظوا بغيركم وسلموا إلينا أمركم ... فنحن لا نرحم من بكا ولا نرق لمن شكا...".(٢)

خلاصة القول أن رسائل المغول سالفة الذكر قد حوت في طياتها عقيدة راسخة عند المغول، وقناعة داخلية قد تم ترسيخها في نفوسهم، أن المغول لهم الأحقية المطلقة في حكم الأرض دون منازع أو منافس، وأن

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدى الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٣٣.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ج١، ص ٥١٥. .

ذلك هبة من الله قد منحها للقائد المغولى جنكيز خان وخلفائه من بعده، هذه قناعتهم بأنفسهم، أما قناعتهم بغيرهم أن الله خلقهم ليكونوا تابعين للمغول، محكومين منهم وليس من غيرهم، ومن هنا فإن من يخرج عن هذا القانون الإلهى في حكم الأرض فإن مصيره بات محتوماً، فقد أضحي في تعداد الموتي فالرحمة لا تعرف لقلوب المغول طريق، وبكاء الأطفال وعويل النساء لا يؤثر في نفوسهم، وهو ما يشكل عبئاً نفسياً كبيراً على كاهل أعدائهم، وكل من يفكر في الوقوف في وجههم، ومن هنا فإن فقدان الثقة بالنفس وسياسة المصير المحتوم تغتال أعدائهم قبل أن تصل إليهم سيوفهم .

- **رسائل مملكة قشتالة الموحدة :**

لا تختلف رسائل التهديد والوعيد وبث الرعب في نفوس المسلمين من مملكتي قشتالة وأراجون كثيراً عن رسائل المغول، فالهدف واحداً، وهو بث الرعب في النفس وزعزعتها حتي تستسلم لفكرة المصير المحتوم، تلك الفكرة التي لعبت دوراً كبيراً في سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية في المشرق، وغرناطة عاصمة المسلمين في بلاد الأندلس.

وكانت أولى رسائل التهديد التي رغبت الملكة إيزابيلا – المتشددة جداً والمتعصبة دينياً لدرجة لا يمكن تخيلها – أن تبلغ المسلمين في بلاد الأندلس ضمنياً أن مصيرهم بات محتوماً، تلك الرسالة التي نشرتها في أرجاء أوروبا في تلك الفترة، وهى رفضها رسالة البابا سيكستوس الرابع في عام ٨٨٣هـ /١٤٧٨م بضرورة إنشاء محاكم تفتيش في إشبيلية تكون خاضعة للبابوية، وأعلنت رسمياً من إشبيلية أنها ستنشأ محاكم تفتيش في

المدينة لتعقب كل المسلمين واليهود بها والتنكيل بهم، إلا أنها ستكون تحت قيادتها وإدارتها وليست تحت سلطة البابوية [١] .

وبالفعل تمكنت من الحصول وزوجها على المرسوم البابوى بإنشاء محاكم التفتيش في إشبيلية على أن تكون تحت سلطان الملكين الكاثوليكيين، وبالفعل تم إنشاء أول محكمة تفتيش في إشبيلية عام ٨٨٦هـ /١٤٨١م، وتم تعيين الملك فرناندو رئيساً لها، ومنحت المحكمة حق مصادرة أملاك وأموال من تحاكمهم لصالح التاج والقضاة. [٢]

ومن هنا فقد وصل مضمون الرسالة لكل المسلمين المدجنيين Los Mudéjares [٣] ، الذين سقطت مدنهم في أيدى الممالك المسيحية، وارتضوا بالعيش تحت سلطانهم، بقصد إرهابهم ،كما أن هذه الرسالة وصلت إلي المسلمين في بلادهم التي لا زالت تحت سلطان

(١) عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٩٨.

(٢) عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص٣٣٢- ٣٣٣؛ رمسيس عوض : محاكم التفتيش، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٧-١٨.

(٣) كلمة مدجن من الفعل دجن، أى خضع، وأطلق عليهم أهل الدجن، وهو لفظ أطلقه المسلمون لفظ المدجن على كل مسلم أقام فى أراضى خاضعة لحكم الممالك المسيحية ، واستمر حتى عصر بنى الأحمر، وبعد سقوط مملكة غرناطة عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، أطلق على المسلمين اسم الموريسكيين Moriscos ممن ارتضوا العيش تحت سلطان قشتالة . انظر: الونشريسى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – تحقيق د/ محمد حجى، بيروت، ١٩٨١م، جـ ٢، ص ١٤٩،١١٤، ١٥٠، ٤٣٩ ؛ مرثيديس غارثيا أرينال : شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)، ترجمة محمود فكرى عبد السميع، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ص٧١-٧٢؛
Harvey, L. P Islamic Spain (1250 – 1500 – London, 1990, pp. 141-142

المسلمين في الأندلس ، بفكرة المصير المحتوم، وعليهم أن يتعظوا من سقوط المدن الإسلامية الكبرى في الأندلس، فبلادهم ليست في منعة من أيدي الممالك المسيحية .

ويدلل على ما سبق أن الملكين الكاثوليكيين المتشددين أصرا أن يكون سلطان المحكمة مستمد من العرش أكثر من البابوية، حتى يتم صبغتها بالصبغة السياسية والاقتصادية حسبما تقتضى الحاجة، ومنحوها حق المصادرة لضمان توفر الأموال اللازمة لشن الحرب على المسلمين.

أما الرسالة الثانية التي تحمل بين طياتها التهديد والوعيد، فكانت رسالة الملكة إيزابيلا للسلطان الغرناطى أبى الحسن على [١] (٨٧١-٨٨٧ هـ/ ١٤٦٦- ١٤٨٢م) وذلك في عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، حيث أرسل إليهما في طلب تجديد معاهدة الصلح – التي كانت قد عقدت بين المملكتين في ١٣ شوال سنة ٨٨٢هـ / ١٧يناير ١٤٧٨م [٢] فأرسل الملكان الكاثوليكان رسالة حملها وفد برئاسة أحد كبار رجال القصر الملكى، ويدعى دون خوان دى فيرا Don Juan de Vera، وقد أبلغهم

(١) السلطان أبو الحسن على سلطان مملكة غرناطة، ورث الحكم عن والده السلطان سعد المستعين بعد وفاته، وكان قد قاد انقلاب على والده فى حياته، بتحريض من أسرة بنى السراج إحدى الأسر العريقة فى غرناطة، وتمكن من دخو الحمراء وفر والده إلى مالقة، إلا أنه كان قد تنازل عن الملك لوالده مرة أخرى، وورثه بعد وفاته فى عام ٨٧١ هـ / ١٤٦٦م، وظل فى سدة الحكم حتى عام ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م . انظر : مجهول: أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر – تحقيق د/ حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٩١، ص ٧٤-٧٥ ؛ محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص ١٩١-١٩٢؛ يوسف شكرى فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، ١٩٨٢م، ص٥٦.

(2).Emillo Garcia Gomes: Las Treguas Con Granada de 1475y 1478 -(Al Andalus, Madrid y Granada),Vol.XIX, 1954 , pp.465-467

الوفد أن الملكين رفضا تجديد الصلح، إلا إذا رضخ السلطان الغرناطى لرغبتهما، وضرورة الانصياع للأوامر، وحكم بلاده تحت إسمهما، وسداد مبلغاً من المال سنوياً مقابل عدم مهاجمة بلاده من قبل الممالك المسيحية(١).

خلاصة القول أن الملك والملكة قرنا موافقتهما على تجديد الصلح باعتراف السلطان الغرناطى بطاعته لهما، ليس ذلك فحسب، بل وتأدية ضريبة سنوية تكون دلالة واضحة علي هذه الطاعة، وعليه أن يتحول إلي حاكم تابع لهما وليس حاكماً مستقلاً ببلاده (٢)، ولتحقيق ذلك حمل رسول الملك والملكة إلي سلطان غرناطة رسالة منهما تحمل هذا المعني(٣).

ويبدو أن هذه الرسالة وإن كانت تحمل في طياتها طلبين صريحين وهما الاعتراف بالطاعة ودفع الإتاوة السنوية لضمان الجلوس على عرش مملكة غرناطة، إلا أنها رسالة ضمنية في غاية الخطورة، فاعتراف السلطان أمام سكان مملكته بطاعته لحاكم مسيحي وإن كانت تبعية شكلية، إلا أنها جاءت تأكيدا لبداية شن حرب نفسية على المسلمين في بلاد الأندلس من حكام

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص١٩٤- ١٩٥؛ أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٦٨م، ص ٤٦٣؛ محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وما بعدها، دار الشعب، عمان، الأردن، ١٩٧٧م،، ص ١٧؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧١-٧٢.

(٢) مجهول : أخبار العصر، ص٧٥؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٢.

(٣) عبد الرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م، ص٥٥٠؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٢؛ .

ومحكومين، وهي البداية الفعلية لهذا النوع من الحروب فترة سقوط المدن الأندلسية، وبداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس، فاعتراف أبو الحسن على بالتبعية لهما، سيترتب عليه فقدان الثقة، وزعزعة النفس في البيت الحاكم، وكذلك فقدان الرعية الثقة بحاكمهم، علاوة علي غرس سياسة المصير المحتوم في النفس، وهو سلاح الحرب النفسية في بدايتها، حتي يتسائل الناس ما هو مصيرنا إن رفضنا التبعية، أليس شن الحرب، أوليسوا أقوى منا، إنهم اتحدوا في قوة واحدة، هل يمكننا أن نواجههم، ومن هنا تأتي الهزيمة النفسية ثم الهزيمة الحربية، يدلل على ذلك أن الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس انتهى بعد خمسة عشر عاماً فقط من هذه الرسالة.

أما عن الرسالة الأكثر تأثيراً في نفوس المسلمين في بلاد الأندلس، حكاماً ومحكومين، الرسالة التي لم يصمد المسلمون بعدها إلا تسع سنوات فقط، ثم سلموا مفاتيح عاصمتهم غرناطة لأعدائهم، كانت رسالة الملكة إيزابيلا وزوجها الملك فرناندو الخامس للسلطان أبو عبد الله محمد[١] (٨٨٧-٨٩٧هـ

(١) أبو عبد الله محمد: أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن على من ابنة عمه عائشة، ورغم أنه كان المرشح بعد والده لحكم غرناطة إلا أن زوجة أبيه ثريا أو كوكب الصباح التى يرجع أصلها إلى الأصل الإسبانى، جعلت السلطان يعزل ابنه محمد عن ولاية العهد، وقبض عليه هو وأخيه ووالدتهما عائشة وسجنهم فى الحمراء، وتمكنا من الفرار إلى وادى آش، واندلعت ثورة عارمة ضد السلطان أبى الحسن فى غرناطة انتهت بجلوسه على عرش المملكة، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وتطلق عليه المصادر والمراجع الأوربية اسم Boadil . انظر: مجهول: أخبار العصر، ص ص ٧٨-٧٩؛ المقرى : نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب – تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨م، جـ٦، ص٢٦٢؛ أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب و الأندلس، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ محمد عبد الله عنان: أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ،مجلة أدب ونقد، القاهرة، عدد ٨٨، مجلد ٩، ديسمبر ١٩٩٢م، ص ٥٠-٥٥.

Luis Seco de Lucena: La Sultana Madre de Boabdil- (Al- Andalus, Madrid Y Granada, Vol. VII, 1947), pp. 369-370.

/١٤٨٢-١٤٩٢م) آخر سلاطين بنى الأحمر في غرناطة، بعد وقوعه في الأسر في عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م[١].

وعلى الرغم من محاولات كل من السلطان أبى الحسن على التدخل لإنقاذ ولده محمد، ليكون تحت يديه بعد ذلك، فأرسل للملكين الكاثوليكيين يطلب منهما تسليمه ابنه، مقابل دفع مبلغ مالى كبير كفدية، وإطلاق سراح عدد من الأسرى القشتاليين والأراجونيين في غرناطة، إلا أن هذا الطلب قوبل بالرفض من قبل الجانب القشتالى [٢].

ولم يكن عرض السلطان أبو الحسن على العرض الوحيد بالنسبة لاطلاق سراح أبو عبد الله محمد، فقد أرسلت أمه الأميرة عائشة للملكة إيزابيلا تطلب منها موافقتها على إطلاق سراحه مقابل تعهدات الموافقة أن

---

(١) وقع السلطان الغرناطى فى الأسر فى موقعة عرفت باسم موقعة اللسانة نسبة إلى المكان التى وقعت فيه بالقرب من قرطبة، وفى الجنوب الشرقى منها وتسمى اللسانة Lucena ، وتعتبر من أهم المعارك فى تاريخ الأندلس، لأن من أهم النتائج التى ترتبيت عليها ليست الهزيمة التى لحقت بالجيش الإسلامى فحسب، بل لأن السلطان = الغرناطى وقع فى الأسر، وبعد أن عرف نفسه للجند القشتاليين فى المعركة، اقتادوه للملك والملكة ففرحا بها جداً . انظر : مجهول :أخبار العصر، ص ٨٥-٨٦؛ محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص٢٠٤؛ محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس، ص ٢٠٧؛ محمد باقر الحسينى : أضواء على نهاية العرب في الأندلس من خلال نقد ذهني باسم الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا، مجلة آفاق عربية ،بغداد، العدد١، أيلول – ١٩٧٨، ص ١٠٩.

Luis Seco de Lucena: La Sultana Madre de Boabdil, pp. 371-372.

(٢) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ٢٠٤-٢٠٦؛ محمد باقر الحسينى : أضواء على نهاية العرب في الأندلس، ص ١٠٩؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية في الأندلس، ص ١٩٤ .

يحكم ابنها غرناطة تحت سلطان قشتالة، والتعهد بدفع جزية سنوية، وقوبل بالرفض أيضاً [١]، بدعوى أن وقت إطلاق سراحه لم يحن بعد، وأنهما لن يترددا في إطلاق سراحه إذا سنحت الفرصة لذلك [٢] .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا، إذا كانت قشتالة ترغب وبشدة في ضم مملكة غرناطة لسلطانها ،لماذا رفض الملكين أن يتم إطلاق سراح أبو عبد الله محمد مقابل أن يحكم غرناطة تحت سلطانهما الإسمى، ويتحول لحاكم تابع لهما؟

وتجيب الأحداث المتتالية على هذا التساؤل، فتشير الأحداث أنه كان هناك دافعاً قوياً لديهما في ذلك الرفض، حتى يبقى السلطان الأسير في أسره مدة أطول، حيث رغبا في أن يتم توصيل رسالة قوية له، تؤثر بشكل مباشر في قتل معنوياته، والتأثير في نفسه، وهو ما يمكن تسميته بممارسة الحرب النفسية والضغط النفسى عليه بشتى السبل ويقنعانه بسياسة المصير المحتوم، ويصلانه رسالة تهديد يشوهان فيها ملكه، ويقنعانه بزواله.

وتختلف الرسالة هذه المرة عن سابقتها، فهى رسالة وجهاً لوجه، وبلا وسيط بين الطرفين، فعندما تقابل مع الملك والملكة، بدأ كل منهما في تسميم أفكاره، بإقناعه أن النجاة الحقيقية في الإذعان لهما، وأنه لا

(١) عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة؛ ص ٧٣-٧٤؛ محمد عبد الله عنان: أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، ص ٥٤؛

(٢) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٥؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٣-٧٤ .

تنازل أبداً عن دخول غرناطة العاصمة يوماً ما، رافعين راية المسيحية على الإسلام ،مكللين حرب الاسترداد المسيحية بالنجاح [١].

وفى رسالتهما بالصوت والصورة هذه المرة مارسا الملكان ضغوطاً نفسية على السلطان الغرناطى لا تقل عن تلك الضغوط النفسية التي حققتها رسائل المغول للخليفة العباسى المستعصم بالله في بغداد، فقد أقنعاه أن غرناطة عاصمته ستسقط لا محالة، وأن المسألة فقط هى مسألة وقت، وأنهما قد كرسا حياتهما لتنفيذ ذلك، وأن قوته قد تهالكت، وأمجاد أسلافه قد تآكلت، والخير له في طاعتهم، وعدم إعلانه للعصيان لهم، وأن مصلحته باتت مقرونة بطاعته له[٢].

يدلل على ما سبق أنه بعد بقاء السلطان في الأسر لعامين تقريباً، بدأت المفاوضات السرية لإطلاق سراحه، بعد أن تمكنا نفسياً من السلطان الغرناطى الأسير ببث روح الرعب في نفسه، وتحطيم روحه المعنوية، وفقدانه الثقة بنفسه وبجيشه وسكان مملكته، وقبيل سقوط غرناطة عاصمته بسبعة أعوام فقط، أبديا الموافقة في عام ٨٩٠هـ

(١) مجهول :أخبار العصر، ص ٨٥-٨٦؛ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص ٢٠٤-٢٠٦ ؛ محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس، ص ٢٠٧.

(٢) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب و الأندلس، ص ٤٦٥؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٣-٧٤؛ محمد عبد الله عنان : أبو عبد الله، آخر ملوك غرناطة، ص ٥٤ - ٥٥ .

/١٤٨٥م بإطلاق سراح السلطان الأسير، فمن وجهة نظرهما أن الوقت قد حان، وأن ما يرجوا تحقيقه من أسره بات محققاً [١].

وليس ثمة دليل على الروح الانهزامية التي أصابت السلطان الغرناطى هى تلك الفكرة التي بدأ في الترويج لها بقصد أو بغير قصد وهى فكرة المصير المحتوم، وأن هذا المصير بدا في الأفق كحقيقة تلقى بظلالها على الساحة الأندلسية.

وقد اتضح ذلك جلياً بإقتناع السلطان الغرناطى أبو عبد الله محمد بضرورة تقديم العون والمدد للقوات القشتالية التي حاصرت مدينة مالقة Malaga [٢]، بقصد الاستيلاء عليها في عام ٨٩٣هـ /١٤٨٨م، بل تخطى الأمر ذلك فقد حاول كثيراً إقناع المسلمين بعدم المقاومة من منطلق الحرص على حياتهم، وعدم نيل العدو منهم.[٣]

---

(١) مجهول :أخبار العصر، ص ٨٥-٨٦؛ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص ٢٠٤-٢٠٥؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٥-٧٦؛ .

(٢) مالقة : من أهم المدن الأندلسية وميناء مشهور، كانت فى عصر بنى الأحمر العاصمة الثانية بعد غرناطة، وهى مدينة أندلسية قديمة، يعود تاريخ إنشائها إلى عهد الفينيقيين ، ولأنها مدينة ساجلية اشتهرت بصناعة وصيد الأسماك، وتمليحها، فأطلقوا عليها اسم مدينة ساحلية جنوب شرق الأندلس ،يرجع تأسيسها إلى عام ١٢٠٠ ق.م فى عهد الفينيقيين، والذين أعطوها اسم Malako أى المملح . انظر: ابن الخطيب : مفاخرات مالقة وسلا- ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية، ١٩٨٣،ص ص ٨٧ – ٨٩ ؛ الحميرى : الروض المعطار، ص ١٧٧ – ١٧٨

(٣) مجهول : أخبار العصر ، ص٩٧-٩٨ ؛

Fernando de Pulgar: Guerra de Granada, en Coleccion de Cronicas Espanolas- Juan de Mata Carriazo, , Madrid, 1946, Vol. VIII, p.325-335; Rachel Arie: El Reino Nasri, pp. 95-96 .

وهى وإن كانت دعوة في ظاهرها للحفاظ على الأرواح، فإنها كانت تحمل بين طياتها تطور خطير في العلاقات الإسلامية المسيحية في بلاد الأندلس وهى استخدام أعوان من المسلمين وبخاصة قادتهم في شن الحرب النفسية في نفوس المسلمين للنيل منهم.

ويذكرنا موقف السلطان الغرناطى هنا بموقف السلطان العباسى في بغداد حينما نادى في الناس بوضع السلاح، وحثهم على الخضوع والإذعان للمغول، بدعوى الخوف على حياتهم، وعدم نيل المغول منهم، وهى روح انهزامية توثر على روح المقاومة والجهاد بشكل كبير.

أما الرسالة الأخيرة التي حملت الكثير من التهديد وبث الرعب في النفوس فكانت رسالة الملك فرناندو والملكة إيزابيلا للسلطان الغرناطي أبو عبد الله محمد بتسليم غرناطة عام ٨٩٥هـ /١٤٩٠م . حيث أرسل الملك والملكة رسالة إلى السلطان الغرناطى على غرار تلك الرسالة التي أرسلها هولاكو يطلب فيها من المستعصم تسليم بغداد، وفى هذه المرة اشتدت اللهجة التهديدية للملكين الكاثوليكين بعبارات مثل "... إن شروط التسليم قد دونت ... [١]، أى أن الأمر فقط مسألة وقت ليس إلا، ومع الرفض سيجعلانها فاجعة على المسلمين مثل فاجعة مالقة[٢] .

(١) مجهول :أخبار العصر، ص ٨٥-٨٦؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٥.

(٢) مجهول :أخبار العصر، ص ٨٥-٨٦.

ولأن الحرب النفسية التي مورست على السلطان الغرناطى قد أتت ثمارها فإنه أبدى موافقة مبدئية على التسليم، لكنه أعلن أن هذا الأمر سيحتاج المزيد من الوقت لإقناع الرعية التي ستصر على المقاومة [١].

خلاصة القول في مجمل رسائل مملكتى قشتالة وأراجون للمسلمين في بلاد الأندلس، أن هناك نية وقناعة أيضاً لدى القوة المسيحية ،كان الهدف منها طرد المسلمين نهائياً من بلاد الأندلس، وعودتها مرة أخرى للحكم المسيحى، كما كانت قبل فتح المسلمين لبلاد الأندلس، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الملكين الكاثوليكيين لتنفيذ ذلك الأمر.

- الترهيب عن طريق استخدام القوة المفرطة في الحروب :

- المغول :

الموروث المغولى فيما يتعلق بشن الحرب هو الدمار والتخريب والقتل والإبادة، وكلها وسائل تعمل على بث الرعب في نفوس أعدائهم ،ليس ثمة دليل على ذلك من وصف المؤرخين لحرب المغول ضد العالم بأسره، وليس المسلمين فقط، وبدأت سيرتهم تنتشر في ربوع عدة، موقعة الهلع في النفوس، حتى تناول الناس سيرتهم، وبدأو في بث الرعب في النفوس، حتى قبل لقاء المغول.

ويلخص المؤرخ ابن الأثير مدى الرعب والزعر الذى أحدثه الغزو المغولى للعالم الإسلامي قبل غزو المغول للعراق بما يزيد على العشرين عاماً، وأثره في النفوس بقوله "... لقد بقيت سنين معرضاً عن ذكر هذه

---

(١) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٩٤؛ عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية فى الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، ص ٧٤-٧٥؛.

الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك..."(١)

كما تعرض المؤرخ جلال الدين السيوطى لسيرة المغول التي انتشرت بين جموع المسلمين حتى قبيل قدومهم لغزو العراق على أنهم " ... عراض الوجوه، واسعوا الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأى، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ،لأن الغريب لا يتشبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، وعسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل، وتضيق طرق الهرب، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم،....وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال..." (٢)

تُرى بعد أن يتم تناول هذه السيرة في البلدان التي كان المغول يخططون لاجتياحها، هل يصمد أمامهم أحد، تلك هى الروح الانهزامية التي استشرت في أجساد أهالى تلك البلاد حتى قبل لقاء المغول، إنها روح الاستسلام التي طالما تقضى على الأفراد والدول إن تمكنت منها .

وكان حرياً أن يكون رد فعل المغول بعد ذلك هو إمعان القتل للتأكيد على ما يتداوله الناس عنهم وعن وحشيتهم، وهو ما دار بالفعل

(١)ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م، ج١٠، ص ٣٣٣.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٣٣٠.

على أرض الواقع من استخدام القوة المفرطة ضد سكان البلاد التي اجتاحوها لضمان السيطرة عليها نفسياً قبل السيطرة الحربية، لضمان تناول وحشيتهم في القتل بين أهل البلدان الأخرى، فيتأكد لهم ما سمعوه عنهم سلفاً، ويبدؤوا في الاستعداد النفسى في تسليم بلادهم للمغول، حتى لا تدور الدائرة عليهم كسابقيهم.

ومن المؤكد أن المغول كانوا يساعدون بطريقة أو بأخرى على نشر تلك الأخبار عنهم، عند اجتياح أى من المدن، لضعف الروح المعنوية لأهلها، فيبادر أهلها بطلب الأمان مقابل التسليم، بعد هزيمتهم في ميدان النفس، قبل ميدان القتال، ومع ذلك فإن المغول لم يكونوا صادقين في منحهم الأمان الذى طلبه أهل البلاد، ويمعنون فيهم السيف لبث الرعب في نفوس غيرهم، وخشية من تكذيب الروايات التي انتشرت عن وحشيتهم قبل ذلك، وحتى يعلم الجميع أنها سياستهم، فهم لا ينهجون نهجاً غيرها، إنها الوحشية المطلقة والإفراط في استخدام القوة.

ولم يكن ذلك الأمر جديداً عليهم عند اجتياح بغداد، فقد سن قائدهم جنكيز خان سنناً عديدة في القتل والإبادة قبل ذلك، فكان يأمر قادته وجنده بأن ضربة المغول الأولى كالأخيرة، فعندما تبدأ الحرب يعم معها الدمار والتخريب، والقتل والاغتصاب، وعندها يصاب الناس بالهلع، وتنهار قواهم ويستسلمون للمغول(١).

فمنذ أن أعطى جنكيز خان شارة الحرب للمغول لشن الهجوم على الأراضي الإسلامية، وغزو الدولة الخوارزمية، بدأت المذابح تسجل

(١) عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد ٢، تشرين الثانى، ١٩٧١م، ص ٦– ٨؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مج ٢٢، ع١، يناير ٢٠١٤م، ص ٣٢٥.

في التاريخ بدماء القتلى، وتسطر في الكتب بدموع من يكتبها، يدلل على ذلك ما دار في مذبحة أترار[١] على حدود الدولة الخوارزمية، من قتل وذبح وتنكيل ودمار ونهب، وقتل لحاكم المدينة ينال خان [٢] بعد إذلاله لتخويف المسلمين في عام ٦١٦هـ /١٢١٩م [٣] .

ومن أوترار إلى بخارى أعظم مدن إقليم ما وراء النهر ينتقل جنكيز خان في عام ٦١٦هـ /١٢٢٠م ليذيق المسلمين وابلاً من العذاب في مذبحة هى الأبشع في تلك الفترة، لخصها ابن الأثير بقوله "... وأصبحت بخارى خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس .. [٤] " وذكرها ابن كثير بقوله ".. وقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله.. ". [٥]

(١) مدينة أترار أو أطرار : مفتاح بلاد ما وراء النهر، فهى أول مدن الدولة الخوارزمية الحدودية مع المغول، مدينة إسلامية تقع على الضفة الشرقية لنهر سيحون، خربها المغول فى غزوهم، ثم عمرت بعد ذلك وعادت لسابق عهدها . انظر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ١١٣-١١٤؛ كى ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٥٢٨.

(٢) ينال خان : حاكم الدولة الخوارزمية على أترار، و والذى اتهمه جنكيز خان بمقتل التجار المغول فى بلدته، فأثار بذلك جنكيز خان وقرر غزو الدولة الخوارزمية، قام بتحصين أترار، وصمد أمام المغول خمسة أشهر، وبعد استسلام المدينة قذف نفسه من على سطح أحد المنازل فمات . انظر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ١١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص ٣٣٥-٣٣٩؛ عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ٧؛ فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ١١٦-١١٧؛ مفيد الزيدى : المؤرخ ابن الأثير الجوزى وتدوينه الغزو التترى للمشرق الإسلامى، ص ٢٣٣؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٥.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٠.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص ٨٣ .

ومن بخارى إلى سمرقند في مذبحة أخرى سطرها جنكيز خان بدماء المسلمين في العام التالى ٦١٧هـ /١٢٢٠م ، ومن سمرقند إلى خوارزم يستمر المغول في حصاد الأرواح وتدمير البلاد وقتل العباد [١]، كما تم تخريب مدينة نيسابور في عام ٦١٧هـ /١٢٢٠م .[٢]

وقد اتبع المغول في حربهم ممارسة القوة في أبهى صورها، ولم يكن لهم احترام لعهد أخذوه على أنفسهم، ولم تجد كل أساليب الخضوع من الشعوب التي دخلوا بلادهم لتشفع لهم عندهم، بل عاملوهم بكل قسوة حتى بعد استسلامهم، فكم من مدينة أعطوها الأمان ثم فتكوا بها . [٣]

ترى ما هو رد فعل هذه المذابح التي كانت تصل أخبارها أولاً بأول لمسامع أهل العراق، هل يصمدون أمام عدوهم المغولى الذى لا يعرف الرحمة والهوادة، أم يأمنون على أنفسهم بالاستسلام لقوات المغول، وهل

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٤٥-٣٥٠؛ عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ٧؛ فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ، ص ١٢٤-١٢٥؛ مفيد الزيدى : المؤرخ ابن الأثير الجوزى وتدوينه الغزو التترى للمشرق الإسلامى، ص ٢٣٣، ٢٣٥؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٧-٣٥٩؛ الجوينى : تاريخ فاتح العالم (جهان كشاى)، تحقيق محمد عبد الوهاب القزوينى ترجمة السباعى محمد السباعى، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج١، ص ١٨٠؛ عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ٧؛ مفيد الزيدى : المؤرخ ابن الأثير الجوزى وتدوينه الغزو التترى للمشرق الإسلامى، ص ٢٣٥؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٥.

(٣) عبد المنعم رشاد: الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ٩؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى: معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٥.

Joseph Fletcher : The Mingols : Ecologcal and Social Perspectives , Harvard Journal of Asiatic Studies , Harvard-Yenching Institute ,Vol . 46,1968, p 17-18.

كان من استسلم من سكان المدن سالفة الذكر، وسلم مفاتيح المدينة للمغول، أضحى في مأمن أم أنه ذاق العذاب ألواناً رغم استسلامه، تلك معضلة حقيقية تدور في نفوسهم .

مذبحة بغداد ٦٥٦هـ /١٢٥٨م :

كانت أخبار المذابح المغولية تصل إلى بغداد فيعم الرعب في نفوس الجند والعامة، حتى وصل إلى طبقة الخاصة من الحكام والأمراء من بنى العباس وغيرهم، وبدأت تؤتى ثمارها حتى قبل غزو المغول للعراق، فقد انتشرت سيرتهم القتالية بين الناس بصورة مفزعة، وعلى مدار حروبهم قبل غزو العراق، كان الرجل من المغول يدخل على جماعة المسلمين يقتل الواحد تلو الآخر حتى يفنيهم عن آخرهم، دونما يرفع عليه أحد منهم يده، أو يعترضه، وكلهم رعب وخوف، وهذا يجسد الرعب الذى حل بهم، حتى بات الناس ممن لم يكن المغول قد وصلوا إليهم، ينتظرون ويترقبون بين الحين والحين خبر قدومهم إلى بلادهم، والرعب يملأ نفوسهم [١].

وقد ظهر في أشعار شعراء العراق الذين باتوا متخوفين من مصير بلادهم، فاستنهضوا الخليفة خوفاً من أن يكون مصيرهم كغيرهم

فانهض بعزم وإلا ... غشاك ويل وحرب

كسر وهتك وأسر ... ضرب ونهب وسلب[٢]

وعند وصول هولاكو إلى بغداد كان يعلم جيداً أن الحرب النفسية وسيلة قهرية تقهر أعداءه، فعمد إلى حصار المدينة، والتضييق على

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٣٥٢.

(٢) رشيد ناظم : من آثار الغزو التترى فى الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجرى، مجلة آداب الرافدين، العراق، ع ١٢، ١٩٨٠م، ص ١٧٢.

أهلها، ومنع كل من حاول الهرب من المدينة، ومن كان يفكر في الهرب من المدينة مصيره القتل والتشريد، فأضحت المدينة المحاصرة ينتظر من فيها حصاد سيوف المغول للرؤوس(١) .

ولزيادة الضغط النفسى على أهل بغداد اتبع المغول سياسة حربية محكمة تحمل في طياتها سلاحاً رهيباً وهو سلاح المصير المحتوم، أى غرس المصير المحتوم في نفوس أهلها، وهو أن سقوطها في قبضتهم أمر مُسَلَّم به، اتضح ذلك جلياً في حفرهم خندق حول المدينة بسرعة مذهلة، وما خرج من تراب من حفر هذا الخندق، قاموا بعمل ساتر ترابى منيع لهم، أشبه ما يكون بالسور، وأقاموا به أبواباً لدخولهم وخروجهم، يصعب اختراقهم من خلاله، في حين أن الخندق حول بغداد يمنع وصول أية إمدادات لأهلها (٢)، وبهذه الطريقة تؤتى الحرب النفسية ثمارها، بإدراك أهلها أن مصيرهم بات محتوماً، وأن استسلامهم بات وشيكاً. (٣)

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، د.ت، ص٢٧٠-٢٧١؛ ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تحقيق مهدى النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ص ٢٣٣؛ الذهبى : دول الإسلام،تحقيق حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م، ج٢، ص١٧٢-١٧٣؛ عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ١٢-١٣؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٥-٣٢٧.

(٢) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة، ص ٢٣٥؛ عبد الجبار محمود السامرائى : حصار المغول للعاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م، مجلة المورد، العراق، مج ٢٦، ع ٣، ١٩٩٨م، ص ٢٦-٢٧.

(٣) عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، ص ١٢؛ رشيد عبد الله الجميلى: حملة هولاكو على بغداد ٦٥٦هـ، مجلة المورد، العراق، مج ٨، ع ٤، ١٩٧٩م، ص ٦٢-٦٣؛ عبد الجبار محمود السامرائى : حصار المغول للعاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م، ص ٢٧ -٢٨ ؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٧-٣٢٨؛
Joseph Fletcher : The Mingols : Ecologcal and Social, p 17-18.

وليس ثمة دليل على حالة الرعب التي أصابت المسلمين في بغداد من أن السلطان نفسه بعد أن تمكن الرعب منه رأى ضرورة التسليم لهولاكو.[١]

وَلِبَثْ الرعب والخوف في نفوس المسلمين في بغداد قتل هولاكو عدداً من العلماء والوجوه كانوا قد خرجوا لملاقاته مع الخليفة في وفد كان قد طلب هوكو أن يلتقى به، وترك الخليفة، ثم يؤكد على بث الرعب في النفوس بقتل أهل الخليفة أمام عينيه ، ثم يقتل الخليفة، ثم يبدأ في تنفيذ مجزرة بغداد التي عرفت في كتب التاريخ بفاجعة بغداد، لكثرة من قتل من المسلمين فيها، واستمر القتل والذبح في مدينة بغداد ما يربو على الشهر الكامل، أمعن المغول أسلحتهم في المسلمين العزل بشكل غير مسبوق[٢]. ومن كان قد قتل يتم التمثيل بجثته، وبلغ عدد القتلى قرابة المليونى شخص على تقدير المؤرخين[٣]، ويمكن القول أن عدد القتلى كان كبيراً،

(١) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨٨؛ رشيد عبد الله الجميلى: حملة هولاكو على بغداد ٦٥٦هـ، ص ٦٣؛ عبد الجبار محمود السامرائى : حصار المغول للعاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م، ص ٢٧-٢٩.

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ الذهبى : دول الإسلام، ج٢، ص ١٧٣؛ رشيد عبد الله الجميلى: حملة هولاكو على بغداد ٦٥٦هـ، ص ٦٣-٦٤؛ فائز على بخيت : الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغولى ٦٥٦-٦٧٦هـ /١٢٥٨-١٢٧٧م، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، مج ١، ع ٢، ٢٠٠٨م، ص ١١٨-١١٩؛ يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، ص ٣٢٦-٣٢٨.

(٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة، ص ٢٣٦؛الذهبى : دول الإسلام، ج٢، ص ١٧٣؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٢.

لكن في تقدير الباحث أن هذا العدد مبالغ فيه، وإنما من فجع وهول الموقف، وكثرة القتلى ذكر المؤرخون ذلك .

ويلخص الرحالة ابن بطوطة الحالة التي كانت عليها بغداد بعد اجتياح المغول لها بقوله"... ذهب رسمها، ولم يبق إلا اسمها، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها، كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر ..." (١).

ويتضح ما حل ببغدادٍ في أبيات أوردها ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة لأحد الشعراء ممن رثى بغداد بقوله

لسائل الدمع عن بغداد أخبار...فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لاتفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخلافة والربع الذى شرفت...به المعالم قد عفاه إقفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ...وللدموع على الآثار آثار (٢)

خلاصة القول أتت الحرب النفسية بكامل ثمارها في حرب المغول على بغداد، حتى قبيل وصول القوات المغولية على مشارف المدينة، فتفتت عضد الجيش، وانهارت القوى المعنوية، ودب اليأس في النفوس، وتأهب الجميع لملاقاة مصير محتوم، كان شعاره القتل والتخريب.

---

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان و مصطفى القفاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٢٣١.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣م ، ج٧، ص٥١- ٥٢.

ب- إمعان قشتالة وأراجون القوة في مسلمى الأندلس :

إمعان القتل عند المغول، وإن اختلف في التوقيت والمكان في بغداد عن الأراضى والمدن الأندلسية، إلا أنه اتفق في النتيجة مع تلك المذابح التي ارتكبتها القوات القشتالية والأراجونية في بلاد الأندلس .

فمع رغبة الملكين الكاثوليكيين الجامحة في الاستيلاء على الأراضى الإسلامية في بلاد الأندلس، وكانت أولى الفواجع الكبرى التي كانت ذات صيت كبير، وأثرت في نفوس المسلمين بشكل مباشر، هو سقوط مدينة رندة Ronda[١]، فبعد أن شددت عليها القوات المهاجمة الحصار في عام ٨٩٠هـ /١٤٨٥م، ونصب القشتاليون آلات الحصار الشديد، وكان معهم سلاح المدفع الذى كان قد بدأ ينتشر في تلك الفترة في جيش قشتالة وأراجون، حتى أنه من الرعب الذى كان يحدثه المدفع، لم يتمكن الناس من النوم لعدة أيام، ودبت روح اليأس في نفوس المسلمين بالمدينة، فاتفقوا جميعاً على الاستسلام لعدم قدرتهم على المواجهة[٢] .

وبدأت مدناً إسلامية أندلسية تحذو حذو مدينة رندة، فعندما يتوجه الجيش المسيحى القشتالى الأراجونى إلى أى من المدن، ويضرب عليها الحصار تدب روح اليأس في نفوس المسلمين، ويبادرون بالتسليم على غرار ما تم في مدينة رندة، وهو ما حدث مع مدينة لوشة في عام ٨٩١هـ ١٤٨٦م.[٣]

---

(١) رندة Ronda : مدينة أندلسية تقع غرب مالقة، اسمها قديماً Arunda، وتعتبر قاعدة عسكرية هامة فى بلاد الأندلس . انظر . الحميرى: الروض المعطار، ص٢٦٩.

(٢) مجهول: أخبار العصر ص ٨٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص٩١ .

مذبحة مالقة ٨٩٣هـ /١٤٨٨م:

كانت مذبحة مالقة إحدى المذابح الوحشية التي سبقت سقوط غرناطة بأربع سنوات فقط، وكان لها بالغ الأثر في نفوس المسلمين بصفة عامة، ونفوس الغرناطيين بصفة خاصة، فبعد أن شدد النصارى عليها الحصار البرى والبحرى في آن واحد، ومنعوا وصل أية إمدادات برية أو بحرية إليها، كحصار هولاكو لبغداد في عام ٦٥٦هـ /١٢٥٨م الذى وصف بأنه شديدٌ، ولا يقل عن حصار النصارى لغرناطة عند الاستيلاء عليها في حملتهم الأخيرة، فقد شدد النصارى الحصار على مالقة ببناء سور من الخشب حولها، وقاموا بضرب المدينة بالمدافع لمدة طويلة، ولما بدأت الأقوات تنفد، انتشرت المجاعة بالمدينة، ولم يجد الناس ما يأكلونه، فاتفق أهل الحل والعقد على تسليم المدينة، وعلى الرغم من ذلك لم يف الملك والملكة بتعهدهما لأهل مالقة بالأمن والأمان، إذا ما رضوا بالتسليم، فأمر الملكان القوات القشتالية والأراجونية باجتياح المدينة، ونهبها وقتل وسبى من بها، وأصدرت الملكة قراراها بأن يصبح أهل مالقة عبيد، يخدمون ساداتهم في مملكتى قشتالة وأراجون، وبالفعل من وقع في الأسر ونجا من القتل، حمل إلى الأسواق لبيعه عبيداً. (١)

وأتت هذه المذبحة ثمارها بعد ذلك باستسلام الكثير من المدن والقلاع مثل وادى آش والمنكب والمرية، بل وقع ذلك كفاجعة في نفوس أهل غرناطة العاصمة، وبدأوا يفكرون فيما دار لأهل مالقة على أيدى القوات المسيحية، من قتل وتشريد، وهى بالأمس المدينة الأندلسية العامرة، التي كانت قبلة لكثير من العلماء، ومدينة التجارة العالمية في العصور الوسطى، وأهلها الأكثر مالاً وعزاً بين أهل الأندلس، واليوم من نجا منهم من القتل، أصبح عبداً يباع في سوق العبيد، وبدأت نفوس المسلمين في غرناطة متزعزعة، وتملك الخوف منهم أن يلقوا نفس المصير، فيا لها من حرب أقوى من ضربات السيوف، إنها الحرب النفسية في أوج وأبهى صورها عبر التاريخ.

---

(١) مجهول: أخبار العصر ص٩٨ .

فاجعة غرناطة:

لا تقل فاجعة سقوط غرناطة بعد حصارها وما دار بها، عن فاجعة اجتياح المغول لبغداد، فكانت أسلحة إبادية جديدة قد ظهرت بحوزة جيش النصارى من مملكتى قشتالة وأراجون كالمدافع والبارود، وكانت تعلوه رايات الصليب والصور المقدسة وشعار مقدمة الجيش التي تضم الملك والملكة لا عودة إلا بغرناطة.(١)

ولبث الرعب في نفوس المسلمين وتخويفهم، قام الجيش المسيحى بتشييد مدينة للإقامة فيها، وهى مدينة شانتفى Shantafe أى العناية المقدسة، حتى يعرف المسلمون في غرناطة أن الحملة لن تعود إلا بعد تحقيق أهدافها، ودخولها غرناطة، وهى صورة من صور بث الرعب في النفوس(٢).

وشدد الملك والملكة الحصار البرى والبحرى حول غرناطة، وتم فرض حصار على المدينة لمنع وصول أي إمدادات مادية أو عسكرية إليها، وعلى الرغم من خيار المقاومة الذى اتخذه أهل غرناطة، إلا أن ذلك لم يكن مجدياً في ظل قوة جيش النصارى على النحو سالف الذكر، ومع حلول الشتاء بدأت المجاعة تضرب المدينة، وتبدل الحال فاجتمع أهل الحل والعقد ورأوا تسليم المدينة للنصارى(٣).

تم تدوين عدداً من الشروط لتسليم المدينة بلغت حسب الوثائق التاريخية سبعة وأربعين شرطاً، كان أهمها تحقيق الأمن والأمان لأهل غرناطة،

---

(١) مجهول: أخبار العصر ص ١١٠؛ محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) مجهول: أخبار العصر، ص ١١٠؛ عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ١٩٥.

(٣) مجهول: أخبار العصر ص ١١٣.

وعدم المساس بهم، وأموالهم وذويهم، وضمان حرية عبادتهم، ونظمت العلاقة مستقبلاً بين المسلمين والنصارى واليهود [١].

أما ما يهمنا هنا هل التزم الملك والملكة بعهدهما لأهل غرناطة، فما الفرق بين اغتيال السلطان المستعصم العباسى قتلاً، واغتيال السلطان الغرناطى معنوياً بتسليمه بيده مفاتيح الحمراء للملك والملكة، ثم خروجه من غرناطة باكياً، كان يتمنى الموت، ولم يجده، ولربما كان في موت المستعصم راحة له، عكس ما كان لسلطان غرناطة محمد الثاني عشر من الموت بحسرته.

وبعد عدة سنوات، نعم المسلمون فيها بالهدوء النسبى، بدأ المأساة التي سجلها التاريخ كأقوى فاجعة تربط التاريخ الوسيط بالحديث، وهى فاجعة غرناطة، فلا توجد آلية للرجوع إليها إذا ما أخل طرف من الأطراف ببنود الوثيقة، فتحولت المساجد إلى كنائس، ومنع الآذان والوضوء علناً، وبدأت عمليات تبشير على نطاق واسع، وبدأت انتفاضة عام ٩٠٤هـ /١٤٩٩م في حى البيازين اعتراضاً على ما سبق، ثم ثار أهل البشرات في عام ٩٠٦هـ /١٥٠١م لاعتراضهم على عمليات التبشير الواسعة، وقوبلت الثورة بالقمع الشديد والقتل والتشريد، وظل الأمر بقتل وتشريد وتبشير حتى كان مرسوم ١٠١٨هـ /١٦٠٩م بطرد المسلمين نهائياً من بلاد الأندلس[٢] .

---

(١) المقرى: نفح الطيب، ج ٤، ص ٥٢٥-٥٢٦؛ عبد الرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسى، ص ٥٥٤-٥٥٧.

(٢) مجهول: أخبار العصر ص ١١٦-١١٧؛ عبد الله محمد جمال الدين : المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون، دار الصحوة للنشر ،القاهرة، ١٩٩١م، ص ٣٥٢- ٣٥٥؛ عبد العزيز بن عبدالله : الأندلس فى أيامها الأخيرة، مجلة الأكاديمية، المغرب، العدد ٢٤، ٢٠٠٧م، ص ٥١-٥٢؛ عبد العزيز السعود : اتفاقيات تسليم غرناطة ومحاولة استيعاب الموريسكيين ثم طردهم من أسبانيا، المجلة المتوسطية للأشكال الحضارية، المغرب، العدد ٣، ٤، ٢٠١٠م، ص ٢٠-٢٦.

المبحث الثالث

الترغيب

١- الرسائل:

أ. المغول :

حملت رسائل المغول بين طياتها نوعاً من الترغيب للقادة والحكام المسلمين والعلماء وعلية القوم للدخول في طاعة المغول، بدعوى الحفاظ على مصالحهم ووضعهم الاجتماعى بين الناس، وعدم التصدى لرغبة المغول في حكم العالم، والسيطرة على مساحات واسعة من الأراضى .

ففى رسالة هولاكو الأولى للسلطان المستعصم العباسى كتب "... فإن استجاب (يقصد السلطان) لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نُكن له الحقد، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته، ..... " [١] ، وكذلك أيضاً".. فكان من سار معنا، وأطاعنا، واستقام قلبه ولسانه، تبقى له أمواله ونساؤه، وأبناؤه ..." . [٢]

وتؤكد فكرة الترغيب عند المغول رسالة قائدهم هولاكو لحاكم حلب يرغبه فيها بالدخول في طاعته بقوله..." أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره، وتنل بره... [٣] .

ويمكن القول هنا أن الحرب النفسية عند المغول، لم تكن مقتصرة فقط على فكرة الترهيب، ومحاولة إقناع الخصوم بفكرة المصير المحتوم، القريب والقريب جداً، وإنما كان من بين أساليبهم في الحرب النفسية فكرة الترغيب، ولعبوا في فكرتهم في الترغيب على الحفاظ على النفس، والحفاظ على الأسرة

(١) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٦٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٧١.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٥٢.

والأقارب وحقن دمائهم، والحفاظ على الهيبة والمكانة الاجتماعية، والحفاظ على كرسى الحكم، أو المنصب أياً كان، والحفاظ على المال.

كما كانت هناك عبارات أخرى تحمل مؤشرات ترغيبية أيضاً أهمها التقرب من المغول، وكسب ودهم، وهو من وجهة نظر المغول تعتبر منزلة أخرى أعلى من تلك المنزلة التي تنالها أنت في بلدك، وبين قومك، تلك الهيبة والمكانة العظيمة إنما تستمدها أنت من قربك من دائرة الحكم المغولية، ذالك أنك تحكم بلد واحدة أياً كانت، أما المغول فهم حكام العالم، ونيلك رضاهم، إنما هى مكانة عظيمة لا ينالها الكثيرون.

ب. رسائل مملكتى قشالة وأراجون :

حثت الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة والملك فرناندوا زوجها وملك أراجون حكام مملكة غرناطة منذ وقت مبكر على ضرورة الإصغاء لنصحهما بقبول التبعية لهما، وحكم المملكة تحت سلطانهما وباسمهما، وإن اختلفت صور طلبهما هذا، ففى بعض الأحيان جاء بشكل مباشر، وفى البعض الآخر جاء بشكل غير مباشر .

ففى رسالة الملكين الكاثوليكيين للسلطان الغرناطى أبى الحسن على في عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، والتى حملها وفد برئاسة أحد كبار رجال القصر الملكى، ويدعى دون خوان دى فيرا Don Juan de Vera، كانا قد أسديا النصح من خلال الوفد للسلطان بترغيبه في حكم بلاده تحت وصاية وولاية مملكتين عظيميتين هما قشتالة وأراجون، فذلك أفضل له بكثير من حكمها بعيداً عنهما، وإن في ذلك ضمانة حقيقية لاستمراره في حكم المملكة، وأن بقاءه مرهون برضى الملك والملكة[١].

(١) عبد الحميد العبادى: المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ١٩١؛ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص ١٩٥؛ أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٦٣؛ محمد عبده حتاملة: محنة مسلمى الأندلس، ص١٧.

ويمكن القول أن غرناطة في تلك الفترة، ومن وجهة نظرهما لا ترقى إلا أن تكون مقاطعة من مقاطعات قشتالة، ويجب أن تخضع لها، وأن في ذلك حفاظ على السلطان، وعلى أملاكه، وعلى كرسى عرشه، وأن المبلغ الذى سيؤديه نظير ذلك هو ما يمكن تسميته بدل الحماية، لضمان عدم قيام أى من الممالك بشن هجوم مباغت على أملاكه بقصد ضمها إليها.

وبعد وقوع السلطان أبو عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة أسيراً في موقعة اللسانة عام ٨٨٨هـ /١٤٨٣م، تم ترغيبه في الدخول في طاعة الملكين الكاثوليكيين حتى يظل يحكم مملكته باسمهم، وأن مصلحته معهم وليست مع غيرهم، وأن في ذلك ضماناً لاستمراره ملكاً علي ما يحكم من بلاد(١) .

وهو نفس المعنى الذى حملته رسالتهما الأخيرة، بطلبهما من السلطان الغرناطى تسليم غرناطة في عام ٨٩٥هـ /١٤٩٠م، حفاظاً على هيبته، وروحه، وماله، وخاصته .

٢- استقطاب بعض الشخصيات :

أ- المغول :

ليس أمراً غريباً على قوة حربية مثل المغول أن تلجأ في حربها لسياسة تساعدها بشكل أو بآخر على الاستيلاء على المدن واجتياحها، ألا وهى سياسة الاستقطاب، وهى صورة أخرى من صور الحرب النفسية، تؤتى ثمارها عندما يرى أهل المدن قادتهم وأمراءهم أدلاء لأعدائهم، مقربين منهم، فيتساءلون، أولسنا مثلهم، لما المقاومة، وها هم علية القوم

(١) محمد عبد الله عنان : أبو عبد الله ،آخر ملوك غرناطة، ص ٥٤، ٥٥.

يتسارعون للتقرب من الأعداء، ربما لضمان النجاة، أو لضمان البقاء في القمة، والعلو، بعد سقوط المدن .

وكان من سياسة المغول الحربية حسبما يذكر المؤرخ ابن العبرى أنهم لا يدخلون بلاداً مجهولة الدروب عليهم، إلا باستقطاب شخصيات من أهلها، فهم بذلك أدلاء على دروبها لتسهيل مهمتهم، وكذلك للتأثير على أهل البلاد معنوياً، كل ذلك بوعد الحصول على الأمان لهم ولذويهم، أو البقاء في المناصب، أو حتى التقرب من المغول لتحقيق هدف سياسى بالانتقام من الخصوم(١) .

وكانت الشخصية الأولى المستقطبة صاحبة الدور المحورى في هذا المجال، الوزير العباسى الشيعى مؤيد الدين محمد بن على المعروف بابن العلقمى(٢) (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وكان وزيراً للدولة العباسية زمن الخليفة المستعصم بالله (٣).

---

(١) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٧٠.

(٢) هو أبو طالب محمد بن أحمد بن علي، مؤيَّد الدين الأسدي البغدادي الرافضي المعروف بابن العلقمي هو أبو طالب محمد بن أحمد بن علي، مؤيَّد الدين الأسدي البغدادي الرافضي المعروف بابن العلقمي (٥٩٣- ٦٥٦هـ/ ١١٩٧- ١٢٥٨م)، كان معروفاً كأديب، تولى مناصب سياسية عدة منها وظيفة الأستاذ دارية(المسئول عن دار الخلافة) عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م، وأصبح من حاشية الخليفة ومن المقربين له، ونال ثقة الخليفة المستعصم بعد ذلك وولاه الوزارة عام ٦٤٢هـ /١٢٤٤م، ولم يلبث أن ترك له الحبل على الغارب فعاث فى الخلافة كيفما شاء . انظر : الذهبى : سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأررناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ج ٢٣، ص ١٦٢-١٦٣؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدميرى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٩٩م، ج١١، ص ١٧٧؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٣) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ،تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٨٥م، ج٣، ص ٢٨٤.

وكان الدافع وراء رغبة الوزير ابن العلقمى في التعاون مع المغول ضد المسلمين قد لخصه المؤرخون في حقده الدفين على أهل السنة والجماعة ومذهبهم، وتمنيه زوال خلافتهم العباسية [١]، وأشار المؤرخ شمس الدين الذهبى إلى ذلك بقوله "... ثارت فتنة مهولة في بغداد بين أهل السنة والرافضة [٢]أدت إلى نهب عظيم وخراب، وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتنمَّر ابن العلقمى الوزير، وجَسَّرَ مع التتار على العراق ليتشفي من السنة ..." [٣]، كما أورد المؤرخ ابن كثير "... وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين ...". [٤]، وذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أنه: ... وكان رافضياً خبيثاً، حريصاً على زوال

(١) الذهبى : العبر فى خبر من غبر، ج٣، ص ٢٨٤؛ سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص ٤٨٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٢؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٧– ٤٨.

(٢) كانت الخلافات بين السنة والشيعة فى العراق مستمرة، تتسم بالغليان أحياناً وبالهدوء الحذر أحياناً أخرى، إلا أنه فى عهد المستعصم وتحديداً فى عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ارتكب الشيعة جرائم قتل فى حق أهل السنة، وكان الشيعة القتلة من حى الكرخ فى بغداد، فلم علم أهل السنة ذلك دارت الصدامات بين الجانبين، وتوجه الأمير أبو بكر بن الخليفة العباسى على رأس فرقة من الجيش لوأد الفتنة، فتدخل العامة مع الجيش وتم نهب حى الكرخ فى بغداد وتم تخريب مشهد موسى الكاظم ولذلك كان موقف ابن العقمى الضغين ضد السنة . انظر : أبو الفدا : تاريخ أبى الفدا المختصر فى أخبار البشر، تحيقي محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت،ج٣، ص ٢٠٢: السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٥.

(٣) الذهبى : دول الإسلام، ج٢، ص ١٧٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٢.

الخلافة العباسية، ونقل الخلافة للعلويين، يدبر ذلك في الباطن، ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك، ولا زال يثير الفتن في بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف .." [١].

تلاقت إذاً رغبتان تريد كل منهما نهاية الخلافة العباسية في بغداد، رغبة القائد المغولى هولاكو، ورغبة الحاقد على أهل السنة ابن العلقمى، وبدأت الرسائل تتبادل بين الطرفين، وبدأ ابن العلقمى يشرح لهولاكو أحوال بغداد وعوراتها، وحال جيشها، الذى كان قد عمل قبل ذلك على إضعافه وتقليل أعداده [٢] .

ويتجلى دور خيانة الوزير مؤيد الدين محمد بن على المعروف بابن العلقمى الشيعى المتمرس كأحد أهم رجال بغداد في تلك الفترة الذين لعبوا دوراً في سقوطها في أيدى المغول، بانتهاجه سياسة نشر فكرة المصير المحتوم بين الحكام والمحكومين في بغداد، فما جدوى المقاومة إذاً وقد فعل المغول في البلاد ما فعلوا، وهل هناك في بغداد جيش يتمكن من الوقوف في وجه المغول، إن السلامة في التسليم، فلا طاقة لأهل بغداد بمجازر المغول، وتمكن ابن العلقمى من الخليفة العباسى نفسه، فأقنعه بأن مصيره أصبح مرتبط بالمغول، ومعلق على لسان هولاكو. [٣]

ويلخص المؤرخ ابن كثير مساعدة الوزير ابن العلقمى للمغول في أنه كان يجتهد بشتى الصور في صرف الجيش وتقليل عدده، فبعد أن

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٧.

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ٢٦٣؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٣٦٢؛ دول الإسلام، ج٢، ص ١٧١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٤٧-٤٨؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢ .

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج١١، ص ١٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠١-٢٠٢؛

كان عدد الجيش في عصر المستنصر وقبيل غزو المغول للعراق بأعوام قليلة مائة ألف مقاتل، اجتهد ابن العلقمى في أن يقلله لعشرة آلاف فقط، كما يذكر أن الوزير ابن العلقمى بعد تقليل عدد الجيش دارت مراسلات بينه وبين المغول يرغبهم في دخول البلاد، وأطلعهم على أحوال البلاد وما آلت إليه، وضعف جيشها [١].

ولثقة القائد المغولى هولاكو في الوزير ابن العلقمى، والذى أظهر إخلاصه للمغول، أصبح هو أداة التواصل بينه وبين الخليفة ووجهاء بغداد وعلمائها، فكان إذا خطط لفعل شيء استخدم في تنفيذه الوزير ابن العلقمى لتنفيذه على أكمل وجه، فهو الذى أقنع الخليفة بضرورة الخروج لملاقاة القائد هولاكو في معسكره والتفاهم معه بدلاً من المقاومة، واستجاب الخليفة فخرج ومعه وفد من العلماء والقادة، فقتلهم هولاكو إلا الخليفة ووفد بسيط [٢].

ثم اكتملت الخطة المغولية فطلب هولاكو من ابن العلقمى أن يطلب باقى العلماء والوجهاء والأعيان والقادة في بغداد لحضور عقد قران ابنة هولاكو على ابن الخليفة العباسى، فخرجوا وقتلوا جميعاً، وقتل هولاكو أهل الخليفة وتركه فريداً، ثم طلب من الخليفة أن يأمر الناس بوضع السلاح ففعلوا، وأقنعه ابن العلقمى بتنفيذ ذلك ،لأن في ذلك أمر خلاصه، ففعل الخليفة ما طلبه ابن العلقمى، ثم قتل الخليفة بعد ذلك [٣].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٢.

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٤٨.

(٣) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ ابن الفوطى : الحوادث الجامعة، ص ٢٣٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠١-٢٠٢.

وثمة شخصية شيعية أخرى استخدمها المغول في غزوهم لبغداد، وهو عالم الفلك والرياضيات نصير الدين الطوسى (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م)، ولا يمكن أن نلخص ما قدمه الطوسى من مساعدة للمغول بعد استقطابه كأحد رجالاتهم المخلصين أفضل من وصف المؤرخ رشيد الدين الهمذانى (ت ٧١٨هـ /١٣١٨م) المعاصر للأحداث في صغره والمؤرخ لها في كبره بقوله"... ولما تأكد هولاكو من صدق وإخلاص .. نصير الدين الطوسى ..... (هو ومن اتخذ موقفه من علماء الشيعة) شملهم بعطفه وإنعامه وأعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم وأقاربهم مع أتباعهم وخدمهم وأشياعهم، وأخرجهم من القلعة وألزمهم حضرته هم وأبناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة ومقربون من هلاكو خان وأفراد أسرته..."(١).

أما عما قدمه الطوسى لهولاكو فقد دارت بينهما اتصالات قبيل غزو المغول للعراق ، ويبدو أن أمر الغزو وقدوم المغول كان يميل إليه الطوسى وعدد من علماء الشيعة، وهو ما أورده الهمذانى بقوله"... ومالوا (الطوسى وعدد من العلماء) إلى هولاكو خان إلى أقصى حد، ومن قبل كانوا يرغبون في ذلك ..." (٢).

ونتيجة حتمية لميل الطوسى ومن معه لغزو المغول، فإن مهمته الأساسية كانت إقناع حاكم قلاع الإسماعيلية خورشاه بتسليمها للمغول دون مقاومة، وهو ما نجح فيه بالفعل في عام ٦٥٤هـ /١٢٥٦م (٣).

(١) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ق٢، ص ٢٥٥-٢٦٦.
(٢) الهمذانى : جامع التواريخ، ج٢، ق٢، ص ١٨٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ق٢، ص ١٨٤.

أما المهمة الثانية التي نجح فيها الطوسى باقتدار بعد اختياره مستشاراً مقرباً لهوكو قائد حملة المغول، فهى أمر المراسلات مع الجانب الإسلامي، كما كان منجمه الخاص، الذى تنبأ له بدخول بغداد، وبشره بأنه سيجلس مكان المستعصم.(١)

خلاصة القول أن سياسة المغول اعتمدت بشكل أساسى في غزوهم للعراق على استقطاب بعض الشخصيات لمساعدتها في عملية الغزو، وذلك عن طريق بث روح الاستسلام وعدم القدرة على المقاومة من جانب، والمساعدة في أمور سياسية أخرى من جانب آخر، على النحو سالف الذكر .

ب - مملكتى قشتالة وأراجون:

لا تختلف سياسة مملكتى قشتالة وأراجون في حربهما للقضاء على مملكة غرناطة كثيراً عن سياسة المغول في استقطاب بعض الشخصيات لمساعدتها في تنفيذ أهدافها.

كانت الشخصية المحورية التي نجحا في استقطابها كما سلف ذكراً هو السلطان الغرناطى محمد الثاني عشر آخر حاكم لمملكة غرناطة، فبعد وقوعه أسيراً في موقعة اللسانة عام ٨٨٨هـ /١٤٨٣م، بدأت من وقتها عملية الاستقطاب بطريقة أو بأخرى، حتى يتم من خلاله تنفيذ بعض السياسات المرجوة في تلك الفترة .

وكانت عملية الاستقطاب تقوم على أن يقوم السلطان الصغير بالسماح للجيش المسيحى الموحد بقيادة الملكين الكاثوليكيين بالمرور عبر ما تحت أيديه من بلاد لمحاربة عمه أبى عبد الله محمد الزغل، مقابل

(١) المصدر نفسه، ج٢، ق٢، ص ٢٧٢، ٢٩٦.

تقديمهم العون والمدد له لإخضاع البلاد التي كانت قد خرجت من سلطانه ودخلت في طاعة عمه الزغل قبل ذلك. (١) .

على أية حال بعد إطلاق سراح السلطان أبو عبد الله محمد من الأسر، بعد أن تم استقطابه على النحو سالف الذكر، حققت عملية الاستقطاب المسيحية أهم أهدافها بمد يد العون له في صراعه ضد عمه أبى عبد الله محمد الزغل، فقد كانت المملكة مقسمة إلى قسمين، قسم يحكمه أبو عبد الله محمد الزغل وقاعدته وادى آش، وقسم يحكمه ابن أخيه السلطان محمد الثاني عشر وقاعدته غرناطة، ودارت حلقات من الصراع والحرب الأهلية، وأمدت قشتالة أبو عبد الله الصغير بالمال والسلاح والجند للوقوف في وجه عمه الزغل، واستغلوا هم ذلك وبدأوا في شن الحرب على المدن الإسلامية، وتمكنوا من دخولها، وعلى رأسها مدينة مالقة (٢).

علاوة على ذلك فإن استقطاب السلطان أبو عبد الله محمد الثاني عشر قد ساعد الملكين الكاثوليكيين في تحقيق أهداف أخرى كفقدانه الثقة بنفسه وشعبه، وبث روح الاستسلام بينهم، على نحو سبق ذكره .

---

(١) مجهول: أخبار العصر، ص ص ٨٦-٨٧ ؛ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص ٢٠٥؛ محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس، ص ٣٥-٣٦؛ أسعد حومد : محنة العرب فى الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ، بيروت ،١٩٨٨م، ص ١٣٤-١٣٥؛

Rachel Arie, :El Reino Nasri de Granada (1232-1492) – Madrid, 1992, pp.88-89.

(٢) مجهول : أخبار العصر، ص ص٨٩-٩٠ ؛ المقرى، نفح الطيب ج٤، ص٥١٩، ج٦، ص٢١٣ ؛ أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٦٦ ؛ عبد الرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسى، ص٥٥١ ؛ يوسف شكرى فرحات : غرناطة في ظل بني الاحمر، ص٦٢.

كما لعب أبو عبد الله محمد دوراً كبيراً وقت تسليم غرناطة ،يدل بشكل مباشر على نجاح الجانب القشتالى في استقطابه، وهو ما اتضح من خلال رسائله مع الملكين الكاثوليكيين ومخاطبتهما بـ"... سادتى الملك والملكة... يقبل أيدى أصحاب الجلالة ... [١]، علاوة على كشف الطلبات التي أرسل في طلبها من الملك والملكة نظير خدماته الجليلة لهما في تسليم غرناطة العاصمة .[٢]

ومن المفارقات العجيبة، التي تثبت أن مملكة قشتالة سعت لتحقيق أهدافها باستقطاب عدد من حكام المسلمين وكبار الشخصيات في مملكة غرناطة، أنها عملت على استقطاب أبى عبد الله محمد الزغل نفسه التي كانت تقف مساندة ابن أخيه ضده بالأمس، فبعد أن نجحت القوات القشتالية في الاستيلاء على عدد من المدن الكبرى مستغلة الحرب بين محمد الثاني عشر وعمه الزغل، وبدأت تقدم عروضاً للزغل للدخول في طاعتها والعمل على تحقيق سياستها، نكاية في ابن أخيه محمد الصغير، ومقابل الأمان له ولأسرته، وبناءً عليه قدم وادى آش وأحوازها لقشتالة، كما ساعدها في الاستيلاء على المناطق الأخرى [٣].

---

(١) ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة فى ضوء وثيقة غير منشورة، ضمن كتاب فصول فى نهاية الأندلس، ترجمة دكتور عبد الفتاح عوض، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢١٣، ٢٢٦،

(٢) ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة، ص٢٢٨.

(٣) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص٢٢٧- ٢٢٩؛ أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة، ص ٥٥-٥٧؛ محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس، ص ٤٢؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمى: كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون مأساة الفردوس المفقود(٩٢-٨٩٧هـ /٧١١-١٤٩٢م)، دار الكتب القومية، القاهرة، ١٩٩٣ م، ص٣٧٠.

وكانت سياسة الملكين الكاثوليكيين سالفة الذكر تهدف إلى ما هو أسمى من ذلك، تهدف على التأثير على غرناطة العاصمة ومحاصرتها نفسياً قبل أن تحاصرها عسكرياَ، وهو ما يفسر سياستها بإزكاء الحرب الأهلية، للتأثير عليها وإضعافها، علاوة على وجود أكثر من شخصية تعمل على تنفيذ سياستها في المملكة .

وما أشبه الليلة بالبارحة، فثمة رجلان في مملكة غرناطة كانا قد لعبا دوراً محورياً في أيامها الأخيرة أشبه ما يكون بذلك الدور الذى لعبه الوزير ابن العلقمى، والعالم نصير الدين الطوسى في سقوط بغداد، وهما الوزيران يوسف بن كماشة وأبو القاسم عبد الملك المليح .

وعلى الرغم من أن الوزيرين كانا المفوضان من قبل السلطان محمد الثاني عشر لتولى مفاوضات تسليم غرناطة مع الجانب القشتالى، إلا أن الجانب القشتالى قد نجح في استقطابهما إلى حد كبير حسبما تشير الوثائق والمراسلات التي نشرتها المؤرخة الإسبانية ماريا دل كارمن، والتى تضم عدداً كبيراً من المراسلات التي دارت بين الجانبين، ومنها رسائل كتبها الوزيران، إلا أنهما كانا قد خرجا عن كونهما مفاوضين لما يمكن تسميته تابعين أو مستقطبين .

ويتضح ذلك في تذييل الوزير أبو القاسم المليح لرسالة أرسلها إلى الجانب القشتالى "... وإننى أقبل الأيدى، وأيضاً أقدام أصحاب الجلالة .... ويقبل أديكم الملكية أهل دارى الذين يثنون عليهما كثيراً، وعلى كل من بطرفكم ..... "[١]

(١) ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة فى ضوء وثيقة غير منشورة، ، ص ١٧٢.

كما أن الوزير أبو القاسم المليح في إحدى رسائله للجانب القشتالى يذكر أنه "...وأود أن أقسم بالله وبالشريعة، وبحياة ابنى الذى أحبه، أننى أرغب في خدمة أصحاب الجلالة، .... حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا، لأننى أعرف الخير، والفضل الذى فعلتموه معنا، وأقسم بالله وبالشريعة أننى إذا استطعت أن أحمل غرناطة على كتفى، لحملتها إلى أصحاب الجلالة، وهذه رغبة منى، وليقض الله على إن كنت أكذب .... وأن الخير كل الخير لكم، وأرجوا أن تكونوا على يقين من أنى خادم شريف، ومخلص لأصحاب الجلالة، عظمهما الله .... وأن ما تريدونه من الأعداء في المدينة، ومن سيدى الملك، ومنا نحن سيتم..." [١].

ويتضح من العبارات السابقة بشكل قاطع مدى القنوع للجانب القشتالى، وأن الوزيران تحولا من مفاوضين عن الجانب الإسلامي لا أقول كتابعين للجانب القشتالى ،وإنما يمكن القول أنهما قد استقطبا بشكل أو بآخر لتحقيق مكاسب للجانب القشتالى، وهو ما اتضح من استخدام بعض الألفاظ، والعبارات الدالة على ذلك، حسبما اتضح في الرسائل على النحو سالف الذكر .

والذى يستحق الوقوف عنده ؛ عبارة لافتة للنظر إلى حد كبير، يجب الوقوف عليها، فبعد القراءة المتأنية للرسالة عدة مرات، لم أجد تفسيراً لعبارة"... وأن ما تريدونه من الأعداء في المدينة، ومن سيدى الملك، ومنا سوف يتم ... "[٢]، فمن هم الأعداء الذين قصدهم الوزير، الرسالة كانت وقت التسليم ،أى أن الحرب الأهلية في غرناطة كانت قد

(١) ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة، ص ١٧٦.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧٦.

انتهت، وأن السلطان الفعلى الوحيد للمملكة هو السلطان محمد الثاني عشر، فمن المقصود هنا بكلمة الأعداء إذاً ؟

من المحتمل أن هذا اللفظ كان يقصد به أبو القاسم المليح التيار القوى في غرناطة الذى كان يرفض التسليم، ويرى أن الجهاد حتى الموت هو السبيل الوحيد، وأن الموت دفاعاً عن المدينة، أشرف بكثير من تسليم مفاتيحها، وكان يتزعم هذا التيار القائد موسى بن أبى الغسان(١)، وغيره من أهل غرناطة الذين رفضوا تسليم غرناطة، ورفضوا حتى تسليم رهائن من بينهم، يدلل على ذلك أنه من خوف السلطان من بطشهم، أرسل سراً للملكين الكاثوليكيين في التعجيل بدخول المدينة (٢).

وفى فترة تسليم المدينة نهائياً للجانب القشتالى، كان الوزيران على رأس الوفد المكون من خمسمائة من أهل غرناطة، وهو العدد لذى نصت عليه اتفاقية تسليم غرناطة، كرهائن لضمان تنفيذ هذه الاتفاقية، باعتبار أن الوزيرين معروفين لدى الطرف القشتالى جيداً، وأن وجودهم على رأس الرهائن، بمثابة رسالة طمأنة للجانب القشتالى لإخلاصهما بشكل كبير، لذلك كانا هم من أخذا الرهائن لتسليمها، مما جعل البعض لا يستبعد

(١) موسى بن أبى الغسان هو سليل أحد الأسر العريقة التى تتصل بالبيت الحاكم فى غرناطة . وكان بارعاً فى الفروسية ،ورفض تسليم غرناطة، وفضل الموت ألف مرة من أن تصبح غرناطة وطناً للكفر، خرج مجاهداً، وقاتل حتى فقد فرسه، و قاتل زحفاً على ركبتيه، ولما أحس بعدم قدرته زحف حتى وصل ضفة نهر شنيل ،ألقى بنفسه في النهر ليموت غرقاً هناك انظر : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ واشنطن إيفرنغ : أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هانى يحيى نصرى، مؤسسة الانتشار العربى، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٢٧ .

(٢) ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة، ص ١٤١..

أنهما كانا دليل القوات القشتالية للاستيلاء على الحمراء، من مقر إقامة الملكين الكاثوليكيين وحتى أبواب الحمراء [١].

ومما سبق يتضح بصورة جلية نجاح الجانب القشتالى بشكل كبير في اتباع سياسة الاستقطاب مع كبار الشخصيات الغرناطية، وهو ما أثر بشكل كبير في سير الأحداث، وتنم سياسة الاستقطاب بهذه الصورة، وموافقة شخصيات إسلامية على القيام بهذا الدور عن ضعف شديد كان قد استشرى في جسد المملكة بصفة عامة، وفى البيت الحاكم بصفة خاصة، فلم تعد لبنى الأحمر هيبة قوية بين الناس بسبب فرقتهم، وحروبهم الأهلية التي دارت من أجل النزاع على السلطة، كما كان لاختراق مملكة قشتالة لرجال الدولة بهذا الشكل من حكام ووزراء، واستقطابهما بالغ الأثر في سير الأحداث بصورة كانت تنذر بسقوط المملكة لا محالة .

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٠.

الخاتمة

توصل الباحث من دراسته لهذا الموضوع لعدة نتائج منها :

- ثمة تقارب كبير بين سياسة المغول في غزوهم للعالم الإسلامي، وبين القوى المسيحية الموحدة المتمثلة في مملكتى قشتالة وأراجون ،في حملتها على مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس، فيما يتعلق باستخدام الحرب النفسية ضد المسلمين المسالمين في كل من بغداد وغرناطة، تمثل ذلك التقارب في سياسة القائد هولاكو ضد المسلمين في بغداد، والملكة إيزابيلا وزوجها الملكة فرناندو الخامس التشددية وما عُرف عن الجانبين في كرههما للإسلام والمسلمين، ويتجلى ذلك ليس في فترة الحرب فقط، وإنما ظهر هذا الكره الدفين حتى بعد دخول المدن المستهدفة وسقوطها في أيديهم، والسؤال هنا، إذا كانت هذه الحرب بقصد التوسع، أو حتى اسقاط الدول (الخلافة العباسية، ودولة بنى الأحمر)، فما الجدوى من تلك الحملة الشرسة ضد العزل من المسلمين المسالمين التي حدثت بعد الاستيلاء على المدينتين بغداد وغرناطة، والتى لا يمكن وصفها إلا كونها حملة إبادة لسكان هذه المدن، ولا يمكن توصيف ما حدث من باب الصدفة، وليست مزايدة إذا صنفنا ذلك إرهاب فكرى سيطر في عقل كل منهم، وقام بترجمته حسبما يترآى له .
- كان التسويق الإعلامى الناجح أحد أهم أسباب نجاح الحرب النفسية ضد المسلمين، فسيرة المغول والقشتاليين وضراوتهم في الحرب، وانتهاجهم سياسة الإبادة في المدن التي سبق سقوطها بغداد وغرناطة، كل هذا تم التسويق له على لسان العدو المهاجم بقصد بث الرعب في النفوس، وعلى لسان المسلم المدافع مع تعدد النوايا، فمنهم من روج لها بقصد الاستعداد للمواجهة، ومنهم من روج لها بقصد نشر روح الاستسلام،

وعلى رأهم الشخصيات التي كان الطرف المعتدى قد جندهم لتنفيذ ذلك، إلا أن الأمر المتفق عليه أن الحرب النفسية المتبعة حققت نجاحاً باهراً، فقد استشرت روح الاستسلام في جسد المسلمين بصورة غير مسبوقة، وتملكت فكرة المصير المحتوم منهم، وأيقن الجميع أن الاستسلام هو طوق النجاة .

- تشابهت إلى حد كبير الأحوال الداخلية في كل من بغداد حاضرة الدولة العباسية، وغرناطة حاضرة بنى الأحمر، وهى أرضاً خصبة تؤتى الحرب النفسية ثمارها فيها بكل نجاح، فحال الخلافة العباسية، وخليفتها المستعصم لا يختلف كثيراً عن حال مملكة غرناطة وسلطانها محمد الثاني عشر، فقد دب الضعف السياسى والاقتصادى والحربى في كل منهما، حتى أن العصرين كانا متشابهين في الحالة الاجتماعية من انتشار العادات والتقاليد التي لا يتناسب أغلبها وتعاليم الدين الإسلامي .
- ليس ثمة دليل أقوى من نجاح سياسة الحرب النفسية من ترهيب وترغيب، أكثر من طريقة دخول القوى المعادية سواء المغول أو القشتاليين لبغداد وغرناطة، فالمدينتين تم اجتياحهما بنفس الطريقة طرقة التسليم والاستسلام، بعد أن استشرت روح اليأس في نفوس سكانها، وعجز حكامها عن الزود حتى عن أنفسهم وزويهم، وكانت نهايتهما إلى حد كبير متشابهة، فالخليفة العباسى تم ضرب عنقه أمام أهل بغداد، والسلطان الغرناطى تم اغتياله معنوياً فقد تم ضربه ضربة قوية أمام شعبه مرة، وتم غتيال ما تبقى منه أمام نفسه ووالدته وهو يبكى على ملك قام بتسليم مفاتيحه بيده، ووليس بعيداً أنه كان يتمنى بين نفسه أن يكون قد قتل قبل هذه اللحظات، وربما كان في نفسه يحسد المستعصم خليفة بغداد على نهايته .

- كان سياسة القوى المعادية واضحة منذ البداية، ترهيب شديد، وترغيب مطلوب ،واستقطاب مرغوب، المهم في النهاية الوصول للهدف، وهنا تم الترويج لسياسة استخدام القوة المفرطة، ثم تطبيقها على أرض الواقع، وبدأت بإرهاب القيادات، ثم بترغيبهم، ثم عملت على استقطاب قيادات تساعدها في تنفيذ سياستها والترويج لأفكارها، وبث روح الاستسلام بين السكان، وهذه سياسة لا تنتهى، فهى لا ترتبط بزمان ولا بمكان، فلولا خونة الداخل ما تمكن المعادى من تنفيذ سياسته، وهنا يمكن القول أن خدمات ابن العلقمى، ونصير الدين الطوسى للمغول تتشابه إلى حد كبير مع خدمات أبى عبد الله محمد الثاني عشر، ووزيريه المليح وابن كماشة للقشتاليين عند دخول غرناطة، وهى سياسة تحسب للقوى المعادية في نجاحها في تنفيذ سياستها بأزرع داخلية، وتحسب على هذه الشخصيات التي قبلت بصورة أو بأخرى التعامل مع العدو واطلاعه على عورات الدولة، ومساعدته بشتى الصور مقابل تحقيق مكاسب مادية أو مذهبية، وسيظل التاريخ وكُتُبه ينفرون منهم إلى قيام الساعة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمعربة:

ابن الأثير : عز الدين على بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٨م)

- الكامل في التاريخ، ج ١٠، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٨م)

- رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العربان و مصطفى القفاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، وزارة الثقافة والإرشاد القومى & دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣م .

الجوينى : علاء الدين عطا الملك بن بهاء الدين محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- تاريخ فاتح العالم (جهان كشاى) ،ج١، تحقيق محمد عبد الوهاب القزوينى ترجمة السباعى محمد السباعى، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م

الحميرى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت آخر ق ٩هـ / ١٥م)

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م)

- مفاخرات مالقة وسلا- ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية، ١٩٨٣،

ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر – ج ٣، تحقيق خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م.

الذهبى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الحافظ (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م).

- العبر في خبر من غبر، ج ٣، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٨٥م.
- سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ج ٢٣، تحقيق شعيب الأررناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ١١، تحقيق عمر عبد السلام تدميرى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٩٩م.
- دول الإسلام، ج ٢، تحقيق حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م،

السيوطى : جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ/١٥٠٧م)

- تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدى الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ٢٠٠٤م

ابن العبرى: أبو الفرج بن هارون المعروف بابن العبري(ت ٦٨٥هـ /١٢٨٤م)

- تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، د.ت

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٧٣هـ/١٣٧٢م) .

- تاريخ أبى الفدا المختصر في أخبار البشر، ج٣، تحيقي محمود ديوب، دار الكتب العلمية ،بيروت ،د.ت

ابن الفوطى : كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيبانى (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٢م)

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدى النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنا، ٢٠٠٣م.

القلقشندى : أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا – ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م.

ابن كثير: عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ /١٣٧٣م)

- البداية والنهاية ،مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م،

مجهول:

- أخبار العصر في انقضاء دولة بنى نصر – تحقيق د/ حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٩١

المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م)

- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب –ج ٤، ج ٦، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨م.

المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

الهمذانى : فضل الله رشيد الدين الهمذانى (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)

- جامع التواريخ (تاريخ المغول)- المجلد الثاني، الجزء الثاني، (تاريخ أبناء هولاكو من آباقا خان إلى كيخاتو خان، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ،القاهرة،١٩٦٠م .

الونشريسى: أبو العباس أحمد بن يحى بن محمد التلمسانى (ت ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م)

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – ج٢، تحقيق د/ محمد حجى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)

- معجم البلدان، ج ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم محمد على مرجونة : المغول والحضارة الإسلامية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١٠م.
- أحمد مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ،١٩٦٨م.
- أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ، بيروت ،١٩٨٨م.
- بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان ،المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١م.

- حميدة مهدى سميسم : الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، بغداد، ٢٠٠٤م.
- رمسيس عوض : محاكم التفتيش، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٨م.
- السيد الباز العرينى : المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة ،١٩٨٣م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥هـ/٨٢٠م-١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)- ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩٠م.
- عبد الحميد العبادى : المجمل في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- عبد الرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م.
- عبد الفتاح مقلد الغنيمى: كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون مأساة الفردوس المفقود (٩٢-٨٩٧هـ /٧١١-١٤٩٢م) ، دار الكتب القومية ،القاهرة، ١٩٩٣م.
- عبد القادر أحمد اليوسف : العصور الوسطى الأوربية ٤٧٦-١٥٠٠م، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ،١٩٦٧.
- عبد الله محمد جمال الدين : المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون، دار الصحوة للنشر ،القاهرة، ١٩٩١م.

- فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول في التاريخ–مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ،١٩٧٥م.
- فهمى النجار: الحرب النفسية (أضواء إسلامية)، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ٢٠٠٥م.
- كى ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت ،ط ٢، ١٩٨٥م.
- ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو: كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة في ضوء وثيقة غير منشورة، ضمن كتاب فصول في نهاية الأندلس، ترجمة دكتور عبد الفتاح عوض، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وما بعدها، دار الشعب، عمان، الأردن، ١٩٧٧م.
- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ، ١٩٦٦م.
- مرثيديس غارثيا أرينال: شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)، ترجمة محمود فكرى عبد السميع، القاهرة، ٢٠٠٦م
- منصور عبد الحكيم : جنكيز خان إمبراطور الشر وقاهر العالم، دار الكتاب العربي، دمشق، ٢٠٠٨م
- نادية مرسى صالح: العلاقات المسيحية الإسلامية في أسبانيا عصر الملك ألفونسو الأول المحارب – القاهرة، ٢٠٠٠م
- هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.

- واشنطن إيفرنغ : أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هانى يحيى نصرى، مؤسسة الانتشار العربى، بيروت، ٢٠٠٠م.
- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين – ترجمة محمد عبد الله عنان ،القاهرة، ١٩٤٠م.
- يوسف شكرى فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

ثالثاً : الدوريات:

- رشيد ناظم : من آثار الغزو التترى في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجرى، مجلة آداب الرافدين، العراق، ع ١٢، ١٩٨٠م، ص ١٧٠-٢٠٧.
- رشيد عبد الله الجميلى: حملة هولاكو على بغداد ٦٥٦هـ، مجلة المورد، العراق، مج ٨، ع ٤، ١٩٧٩م، ص ٦٠-٦٤.
- ريهام عبد الله المستادى : رحلة قبائل المغول من التمزق إلى التوحد، دورية كان التاريخية ،دار ناشرى للنشر، الكويت، س ٢، ع ٤،٢٠٠٨م، ص ٦٩-٧٣.
- عبد الجبار محمود السامرائى : حصار المغول للعاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م، مجلة المورد، العراق، مج ٢٦، ع ٣، ١٩٩٨م، ص ١٩-٣٥.
- عبد العزيز السعود : اتفاقيات تسليم غرناطة ومحاولة استيعاب الموريسكيين ثم طردهم من أسبانيا، المجلة المتوسطية للأشكال الحضارية، المغرب، العدد ٣، ٤، ٢٠١٠م، ص ص ٢٠-٢٨.
- عبد العزيز بن عبدالله : الأندلس في أيامها الأخيرة، مجلة الأكاديمية، المغرب، العدد ٢٤، ٢٠٠٧م، ص ص ٥١-٦٧.

- عبد المنعم رشاد : الرعب الذى أحدثه الغزو المغولى، مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد ٢ ،تشرين الثاني، ١٩٧١م، ص ٥-١٤.
- عبد الواحد ذنون طه : تحالف الممالك الإسبانية في الأندلس وأثره على سقوط غرناطة، مجلة البحث العلمى، المغرب، ع ٣٤، ١٩٨٤م، ص ص ٥٩-٧٨.
- فائز على بخيت : الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغوى ٦٥٦-٦٧٦هـ /١٢٥٨-١٢٧٧م، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، مج ١، ع ٢، ٢٠٠٨م، ص ص ١١٦-١٣٩.
- قاسم محمد مزعل غنيمات : قبائل المغول الأولى : النشأة والاندماج والتوحيد ٦١٦-١٢١٨م، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الأردن، مج ٥، ع٣، ٢٠١٢م، ص ٩٠-١١٢.
- محمد سيد محمد : الحرب النفسية وكيف نواجهها، مجلة الدراسات الإعلامية، مصر، ع ٣٢، ٣٣، مارس ١٩٨٤م، ص ٣٣-٤٢.
- محمد عبد الله عنان: أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ،مجلة أدب ونقد، القاهرة، عدد ٨٨، مجلد ٩، ديسمبر ١٩٩٢م، ص ٥٠-٦٠.
- مفيد الزيدى : المؤرخ ابن الأثير الجوزى وتدوينه الغزو التترى للمشرق الإسلامي، مجلة التعريب، سوريا، العدد١٨، ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٢٢٥-٢٤٨.
- يوسف إبراهيم الشيخ عبد الزاملى : معاملة المغول للأسرى المسلمين، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مج ٢٢، ع١، يناير ٢٠١٤م، ص ٣٢١-٣٤٢.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- Bayle St John : The Mongols , Journal of the Ethnological Society of London (1848-1958) , ,Royal Anthropological Institute of Great Britain and Irlend , Vol.1, 1848, pp.86-102.
- Bush, M. L.: Renaissance Reformation and the Outer world – London , 1971.
- Canning, J.:100 Great Kings, Queens and Rulers of the worled-
New York,1988.
- Emillo Garcia Gomes: Las Treguas Con Granada de 1475y 1478 (Al Andalus, Madrid y Granada), 1954,Vol.XIX.
-Fernando de Pulgar: Guerra de Granada, en Coleccion de Cronicas Espanolas- Juan de Mata Carriazo, Vol. VIII , Madrid, 1946.
- Harvey, L. P Islamic Spain (1250 – 1500 – London, 1990.
-Joseph Fletcher : The Mingols : Ecologcal and Social Perspectives, Harvard Journal of Asiatic Studies, Harvard-Yenching Institute ,Vol . 46,1968, pp 11-50.
- Luis Seco de Lucena: La Sultana Madre de Boabdil- (Al-Andalus, Madrid Y Granada, Vol. VII, 1947 .
Rachel Arie: El Reino Nasri de Granada (1232-1492) – Madrid,
-Z.N. Brooke: A History of Europe from 911- 1198- London, 1937.